طرائف دبلوماسية

السفير جمال بركات



الأهرام
مركز الأهرام للترجمة والنشر

إهداء ٢٠١٦
هيئه الرقابه الاداريه
جمهورية مصر العربية

طرائف دبلوماسية

السفير جمال بركات

الطبعة الأولى
١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام ـ شارع الجلاء القاهرة
تليفون ٧٤٨٢٤٨ ـ تلكس ٩٢٠٠١ يو ان

المحتويات

الفصل الثانى

فى أفريقيا

صفحة

الفصل الثالث

ثلاجة الشمال

الفصل الرابع

خاتمة المطاف

صفحة

مقدمة

إن الفكرة من وراء نشر هذه الأوراق الدبلوماسية المتناثرة هى إلقاء الضوء على بعض مراحل العمل الدبلوماسى التى قطعتها خلال خدمتى فى مواقع متفرقة على امتداد أكثر من ثلاثين عاما .

وقد قصدت أن أجمع فيها عددا من المفارقات والمواقف التى صادفتنى خلال هذه الرحلة إلى جوار الانطباعات والتعليقات السياسية عن بعض البلاد التى عملت فيها بحيث تجمع فى النهاية بين الجد والطرافة .

فهى ليست مذكرات سياسية تقليدية على نحو ما يكتبه بعض السفراء وكبار السياسيين عن مشاكل السياسة والحكم وإنما هى أوراق ذات مذاق خاص .

ولعلها بهذه الصورة تكون مقروءة من الفرد العادى ، ومن ربة البيت بحيث يجدون فيها سياحة خفيفة حول العالم .

أما عن الدبلوماسى المحترف - أيا كان البلد الذى ينتمى إليه - فاعتقد أنه سيجد فى هذه الأوراق حصيلة تجربة وخبرة زميل له قد تفيده ، وقد يجد نفسه فى مواقف مماثلة - وقد يتفق مع الأفكار التى أوردها الكاتب وقد تكون له آراء مغايرة ، ولكن فى جميع الأحوال ربما يجد فيها صفحات مشوقة وعبرة لأنها فى واقع الأمر تعكس ذاته وتصور أوضاعه - وما الدبلوماسيون فى مجموعهم إلا أسرة عالمية كبيرة ذات شخصية ذاتية مستقلة لهم كوادر متقاربة ومسميات وظيفية موحدة ومشاكل معيشية متجانسة ، ولهم أسلوبهم المتميز فى التفكير الذى يجمع بين شخصياتهم القومية وتوجهاتهم الدولية .

ولم تعد الدبلوماسية - مهما تحسر البعض - مجرد حفلات واستقبالات وانحناءات وبروتوكول كما هى الصورة القديمة عنها ، ولم يعد الدبلوماسى النموذجى هو من يجيد رياضتى التنس والجولف ويتقن لعبة البردج فحسب .

بل لقد تغيرت المفاهيم وأصبحت المهنة تحتاج لدراسة اللغات ومتابعة يقظة للأحداث الدولية والوجود فى أماكن الخدمة الشاقة ومناطق الخطر والتعرض لحوادث الارهاب الدولى .

ومع ذلك مازال للدبلوماسية بريقها ، وللعمل الدبلوماسى جاذبيته فى التنقل والتعرف على مختلف الثقافات والحضارات . ومازال البعض ينظر إلى ما يدور فى سرية فى القاعات المغلقة من لقاءات أو مفاوضات أو مساع دبلوماسية على أنها أمور غامضة تمس مصير البشرية . وقد يكون ذلك البعض مبالغا فى تصوره . ففى العالم المعاصر أدى التطور فى وسائل الاتصال والانتقال والتقدم التكنولوجى السريع إلى تطوير أسلوب العمل الدبلوماسى تطويرا جذريا ـ وظهر الرأى العام المحلى والعالمى كقوة مؤثرة فى إتخاذ القرار السياسى لدى الدول والحكومات ، وقد ساعد على ذلك ضخامة تأثير وسائل الإعلام ودورها فى تشكيل الرأى العام ، وأصبحت الصحافة ووسائل نقل الأخبار المسموعة والمرئية من إذاعة وتلفزة ـ تمد الدبلوماسى بالمعلومات بكل ما يدور حوله فى العالم شأنه فى ذلك شأن حكومته ذاتها . وأصبحت السرية التى تغلف العمل الدبلوماسى عملية مرحلية لابد أن تعقبها المواقف العلنية المعلنة المكشوفة .

ولعل فى تلك الأوراق الدبلوماسية ما يجد فيها القارىء مادة للتسلية أو التأمل ، أو إضافة لبعض الرتوش على صورة العمل الدبلوماسى كما ترتسم فى مخيلته ، وأترك له فى النهاية تكوين انطباعه عنها وتقييمه لها .

أود أن أنوه هنا بالمعونة الصادقة التى تلقيتها من كثير من الزملاء والأصدقاء ، وبصفة خاصة الدكتور محمد عمر مدنى مدير عام معهد الدراسات الدبلوماسية بالرياض ، والتشجيع الذى لقيته من شريكة حياتى .

كما أتقدم بالشكر والعرفان لمركز الأهرام للترجمة والنشر لإصدار الكتاب بهذه الصورة المشرفة .

والله ولى التوفيق .

شاطىء ابو تلات

جمال بركات

الفصل الأول

الأيام الأولى

حفـــل القصـــر

كنت أشغل منصب السكرتير الثالث فى السفارة المصرية بلندن عندما تلقيت فى يونية ١٩٥٢ دعوة لحضور حفل الشاى السنوى التقليدى الذى تقيمه الملكة فى ذلك الشهر الذى يصادف عيد ميلادها وتدعو إليه رؤساء البعثات الدبلوماسية المعتمدة فى بريطانيا وعدد محدود من دبلوماسيى كل سفارة .

وقد سعدت بتلك الدعوة سعادة غامرة وأخذت أقرأ بطاقة الدعوة بإمعان فوجدت أن الزى المطلوب هو « بذلة الصباح » "Morning Suit" أو البونجور ـ وطبعا نظرا لحداثة عهدى فى السلك الدبلوماسى لم يكن لدى تلك البدلة . كانت الوزارة تصرف لنا بذله رسمية موشاة بالقصب . نذهب إلى أفخر الترزية الأجانب بالقاهرة ونفصل البذلة بخطاب رسمى من الوزارة ، وكانت أشغال القصب على السترة تزداد على الصدر والأكمام حسب الدرجة الدبلوماسية ووفق رسومات محددة موجودة لدى الترزى ـ ولكن هذه البذلة لا تصلح وينبغى إرتداء البونجور (وقد ألغيت بعد قيام ثورة ١٩٥٢) .

وسألنى زملائى القدامى بالسفارة عما سأفعل . قلت سأفصل بذلة جديدة فى « سافيل رو » لحضور الحفل . و « سافيل رو » هو الشارع الذى يوجد فيه أفخم وأغلى ترزية الإنجليز فى الحى الغربى الراقى فى لندن .

وسمع الحديث أحد أصدقائى من الزملاء الكبار ، فجاءنى فى مكتبى وأسر إلى أن تكاليف البذلة ستتجاوز ١٥٠ جنيها أسترلينيا فى ذلك الوقت ، أى أكبر من راتبى الشهرى ، وسوف تستخدم مرة واحدة فى السنة ، وأبقى لآخر الشهر بدون طعام . وقال أن هناك محلات متخصصة لتأجير مثل هذه الملابس الرسمية لمختلف المناسبات كالأفراح وغيرها ونصحنى أن أجرب حظى .

وفعلا فى المساء توجهت إلى أحد المحلات فى « بيكر ستريت » فاستقبلنى الموظف بالمحل ببشاشة وقال : من أجل حفل الشاى ، فأجبت بالإيجاب . فأخذنى إلى حيث الملابس والغرف المخصصة للخلع والقياس والمرايا على الجانبين . ففوجئت بوجود عدد كبير من الزبائن يسيرون بسراويلهم فى الطرقات يجربون المقاسات ، وكأنما السلك الدبلوماسى بأسره قد جاء إلى المحل ، وبعضهم يبدو من سنه أنهم سفراء أو على الأقل وزراء مفوضين .

وقد وجدت البذلة المناسبة مقاسى بالضبط ، واشتريت رباط العنق الرمادى والقفاز الأصفر ، ولكن المشكلة صادفتنا فى القبعة العالية Top hat . فإن مقاس رأسى صغير ، ووجدنا من المتعذر الحصول عليه . وكان الحل لدى الموظف الذى استقبلنى وعنى بى منذ البداية . فقال : من واقع علمه وخبرته أن القبعة لا تُلبس فى داخل القصر ، وإنما تحمل فى اليد عند الدخول وتترك هى والقفاز فى المدخل ، ولذا فيمكننى أن آخذ قبعة وإن كانت أكبر من مقاسى قليلا ، وأحملها فى يدى بدلا من البحث فى محلات القبعات المتخصصة وشراء واحدة جديدة ثمنها يتجاوز ٦٥ جنيها أسترلينيا ، وهو ما كان .

وقد أخذت البذلة كأمانة وخرجت على أن أعيدها فور انتهاء الحفل وقد كلفنى إيجارها ٢ جنيه .

كان الحفل مقاما بالحديقة الخلفية لقصر بكنجهام ووقفت الملكة اليزابيث الثانية فى الشرفة المطلة على الحديقة حيث عزفت الموسيقى السلام الوطنى ، ثم نزلت مرورا بالدبلوماسيين من كل صوب وحدب ، ومن كل لون وجنس ، ثم اتخذت مكانها فى منصة تكسوها مظلة ووقف بجوارها عميد السلك الدبلوماسى فى بريطانيا وكان سفير المملكة العربية السعودية ، وحولها باقى السفراء تسلم عليهم وتتحدث معهم فردا فردا وبجوارها كبير الياوران ومدير المراسم الملكية .

وسألنى زملائى فى اليوم التالى عن الحفل فقلت كان رائعا ، وعن بذلة « سافيل رو » فقلت كانت ممتازة .

فى مطــار القــاهرة

فى صيف ١٩٥٤ استدعانى السفير مدير الإدارة السياسية بوزارة الخارجية المصرية وأبلغنى أن اثنين من زعماء المنطقة الشمالية فى إحدى دول غرب أفريقيا الكبرى سيتوقفان بمطار القاهرة فى طريق عودتهما من أداء فريضة الحج ، وأننى بوصفى رئيسا لقسم أفريقيا بالإدارة سوف أنوب عن الوزارة فى استقبالهم والترحيب بهما فى المطار ـ وكنت بدرجة سكرتير ثان .

وتقصيت الخبر للمزيد من المعلومات فعلمت أن الخبر جاءنا من مصادر خاصة ورئى عدم إيفاد مندوب من المراسم لأن ذلك البلد مازال تحت الحماية البريطانية ، والمهم هو إظهار ترحيب مصر بهما أثناء مرورهما بها رغم عدم إخطارنا رسميا بذلك .

توجهت فى سيارة إدارة المراسم إلى المطار فى المساء قبل موعد وصول الطائرة بوقت كاف ، وقابلت المسئولين بإدارة المطار والأمن ووجدت عددا كبيرا من الطلبة النيجريين الذين يدرسون بالأزهر الشريف وجلسنا جميعا فى قاعة الانتظار ـ وكان المطار صغيرا ـ قبل إنشاء مطار القاهرة الدولى الحالى ـ وقد تجمع فى ساحته الخارجية عدد كبير من الزوار فى انتظار ذويهم ، وقد أقامت الشرطة حواجز لكى لا يتدافع المستقبلون إلى أرض المطار .

وقبل موعد وصول الطائرة الخاصة المقلة للضيفين بقليل وصل مندوب من السفارة البريطانية فى السيارة الرولز رويس الخاصة بالسفير ـ تعرفت عليه فاتضح أنه سكرتير ثالث بالسفارة وقد أوفده السفير لاستقبال الضيفين ومصاحبتهما لدار سكن السفير لحين استئنافهما لرحلتهما .

جاءنا مندوب إدارة المطار منبئا بهبوط الطائرة ، فتوجهنا إلى الساحة الخارجية حتى نكون بانتظارهما عند مدرج الطائرة . وقد شققت طريقى بين الجموع الحاشدة ومعى مندوبون عن إدارة المطار وأمن المطار ، ومن خلفنا المندوب البريطانى والعشرات من المواطنين النيجيريين ، وما أن عبرنا حاجز رجال الشرطة حتى قلت لهم : حوش يا عسكرى . فنشط رجال الشرطة

يمنعون أيا من المستقبلين من العبور إلى أرض المطار وأخذوا يدفعون الناس للخلف .

أسرعت الخطى إلى الأمام وتاهت صرخات المبعوث البريطانى بالإنجليزية فى محاولة لإختراق الصفوف ، ولكن العساكر لا يمكن التفاهم معهم ، ولا يعرفون حتى العربية .

وتقدمت وصافحت الضيفين الكريمين ، ورحبت بهما باسم الحكومة المصرية وهنأتهما على حجهما المبرور ، وأخذنا نسير نحو خمسين مترا فى إتجاه المطار . وقرب الباب خرج المبعوث البريطانى من الزحام من وسط الجماهير وقدمته للضيفين الكبيرين .

جلسنا فى قاعة الانتظار وقدمنا للضيوف المشروبات الغازية والمرطبات ، وأخذ الحاضرون يتحدثون معهم بلهجتهم الوطنية ، وأنا أهز رأسى إيماءً بموافقتى على ما يقولون والزميل البريطانى يسألنى ماذا يقولون فأقول له : بعدين .. بعدين . وعندما استبد به القلق قلت له أنهم يتكلمون لغة « الهوسا » وأنهم يتحدثون عن دراستهم بالأزهر .

وبعد انتهاء مراسم الاستقبال تركت الضيفين مع مندوب السفارة لكى يركبوا معه للقاء السفير البريطانى فى منزله .

ودارت الأيام وبعد ٢٣ سنة ألتقيت مع ذلك الشاب البريطانى ـ وكنت سفيرا لمصر فى بغداد ـ وقد أصبح هو بدوره سفيرا لبريطانيا فى البلد ذاته عام ١٩٧٧ ! .

هذه اللقاءات بين الدبلوماسيين هى أمتع ما يصادفه المرء فى الخدمة فى السلك الدبلوماسى ، فأينما يذهب يتعرف على زملاء جدد ، ويقيم صداقات جديدة ، ثم تفرق بينهم الأقدار ، وبعد مرور عدد من الأعوام ـ ربما عشر سنين أو أكثر يفاجأ بأن يلتقوا مرة أخرى فى بلد آخر .

تحيــة البحــرية

عندما أمم الرئيس جمال عبد الناصر شركة قناة السويس فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ كنت أعمل قنصلا عاما لمصر فى حلب بسوريا - ففى عامم ١٩٥٥ كلفت بفتح قنصلية مصرية عامة هناك ، واخترت لها مبنى مستقلا فى حى « السبيل » وكان وقتها يقع على مشارف المدينة .

كانت فترة عصيبة ، ورئيس وزراء بريطانيا سير أنتونى إيدن يدبر فى الخفاء مع جى موليه رئيس وزراء فرنسا وبن جوريون رئيس وزراء إسرائيل عمليات عسكرية لاحتلال القنال .

وكانت سوريا حكومة وشعبا تتعاون مع مصر قلبا وقالبا ، والشعب السورى يتميز بالوعى والوطنية والعروبة - وقد ترددت فى ذلك الوقت شائعات مؤداها أنه سوف يحدث إنزال لقوات أجنبية على شاطىء اللاذقية فقامت مصر من جانبها - بالتنسيق مع السلطات السورية - بإرسال قوات مصرية للتمركز فى اللاذقية نقلتها وحدات من الأسطول المصرى عادت إلى قواعدها فى مصر .

ولما كانت اللاذقية تتبع القنصلية العامة فى حلب ، فقد توجهت ليلا لاستقبالها حيث كان ملحقنا العسكرى فى دمشق موجودا فى الموقع كذلك .

وبعد أيام تقرر أن يتوجه طابور القوات البحرية بجنوده وكبار ضباطه إلى حلب الشهباء للقاء الجماهير . وأبلغنى المحافظ أن الاستقبال سيتم أمام « فندق بارون » فى وسط المدينة . وفى نحو الساعة الحادية عشرة صباحا كانت مئات الألوف من أبناء الشعب السورى قد تجمعت على جانبى شارع بارون والمنافذ المؤدية إليه . ووقفت إلى جوار المحافظ فى شرفة الفندق ومن حولنا كبار الشخصيات العسكرية والقيادية فى حلب ، وتقدم الطابور فى تنظيم بديع وخطوة عسكرية منضبطة بملابسهم البحرية البيضاء ووقفوا أمام الشرفة وصعد كبار ضباطهم إلى الشرفة وأدوا التحية العسكرية للمحافظ وسلموا علىّ ، وهنا التهبت مشاعر الجماهير بالهتافات والحماس .

وأرتجل المحافظ كلمة حماسية بليغة ، وألقيت بدورى كلمة وطنية قوية -

كانت مظاهرة قومية رائعة انصهرت فيها المشاعر المصرية السورية ـ وكانت الممارسة الدبلوماسية قائمة على الدبلوماسية الشعبية واللقاءات الجماهيرية ، والخطب الوطنية طبعا بتشجيع من السلطات الرسمية .

وبعد انتهاء الكلمات لاحظ المحافظ أن الجماهير مازالت تحيي وتصفق فتطلع حوله فوجد أنه يقف بجوارنا فى الشرفة المونولوجست المصرى المعروف « شكوكو » وأنه يعمل إشارات بيديه وسط تهليل الجماهير . فقال المحافظ : شو العمى دول بيحيوا شكوكو ما بيحيونا .

وتحرك طابور البحرية عائدا إلى موقعه فى اللاذقية .

إنجاز المهمة

عندما وجهت بريطانيا وفرنسا إنذارهما المعروف لمصر فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ وأعقب ذلك العمليات العسكرية اشتد حماس السوريين ، وكانت سيارات الحكومة تمر فى أحياء حلب تنقل للشعب آخر أنباء القتال عن طريق مكبرات الصوت وتذيع أخبار الانتصارات العربية وسط تصفيق الجماهير فى الأماكن العامة !

اتصل بى فى هذه الأثناء سفيرنا فى دمشق ، وقال لى بهدوء أن لنا باخرة ركاب تجارية مصرية تتبع شركة بواخر البوستة الخديوية راسية حاليا فى اللاذقية وقبطانها إنجليزى . وأضاف أن هذه الباخرة يجب أن تبقى فى اللاذقية حتى تنتهى العمليات لأنها لو أبحرت الآن أغرقتها الأساطيل المهاجمة لبور سعيد ، أو أخذتها رهينة أو غنيمة حرب ، وثمنها أكثر من نصف مليون جنيه . المهم تصرف مع القبطان الإنجليزى وتخلص منه والسلام ـ وقد أصدرت السلطات المسئولة فى دمشق تعليماتها لمحافظ اللاذقية بما يلزم .

سافرت فى الفجر بالسيارة إلى اللاذقية وعبرت نقاط التفتيش المقامة بالطريق بعد أن حظرت الحكومة السورية الانتقال للاذقية إلا بتصريح خاص . وتوجهت فور وصولى لمقابلة المسئولين السوريين من مدنيين وعسكريين ... واتفقنا على تأمين نقل القبطان الإنجليزى إلى دمشق .

توجهت إلى الباخرة المصرية وبدأت بزيارة القبطان فى غرفة قيادته وافهمته أنه بالنظر لظروف العمليات العسكرية الجارية فإنه يخشى على حياته من البحارة المصريين وأنه تأمينا له تقرر سفره لدمشق ومنها للخارج ، وسوف تقوم سلطات الأمن السورية بذلك ، وأنها سترسل فى استدعائه الآن ، وعليه أن يجمع أمتعته الشخصية .

وقد تفهم الموقف تماما وشكرنى وتناولنا قدحين من البيرة ، وعلمت أنه بريطانى الجنسية وأن زوجته يونانية مقيمة بالاسكندرية ويود طمأنتها والاطمئنان عليها ، فأخذت عنوانها منه لإجراء اللازم .

طلبت عقد اجتماع عام مع البحارة المصريين ، على ظهر الباخرة وقلت لهم أنه تقرر تنحية وترحيل القبطان البريطانى ، وأن يتولى الضابط الأول للباخرة سلطات القبطان بالنيابة ، وأند صدرت التعليمات بعدم مغادرة الباخرة للاذقية وأن لا تتحرك إلا بتعليمات من السفارة المصرية فى دمشق . وأن من يرغب فى العودة إلى مصر فيتقدم بطلبه للضابط الأول ، وستقوم السلطات السورية بنقله إلى دمشق تمهيدا لعودته للوطن .

كان شعور الجميع حماسيا . يستفسرون عن الأوضاع والأخبار وعائلاتهم ومعظمهم بالاسكندرية ، وأبدى عدد منهم الرغبة فى العودة .

فى هذه الأثناء قدم مندوبون عن السلطات السورية وأصطحبوا القبطان البريطانى ، ولحقت بهم فى قيادة الموقع حيث توليت الترجمة لأنهم لا يجيدون سوى الفرنسية ، ولا يتكلمون الإنجليزية

وبعد الظهر عدت إلى حلب ، واتصلت بالسفير فى دمشق وقلت له تم إنجاز المهمة وطلبت إبلاغ الشكر للسلطات السورية على صادق تعاونها .

* * *

وعندما رجعت لحلب وجدت رسالة من القنصل الأمريكى بحلب فاتصلت به مستفسرا ، فقال أن سلطات الأمن السورية قد قبضت فى اللاذقية على مساعده نائب القنصل ومعه المترجم وهو سورى الجنسية ، وأنه لا يعرف السبب ورجانى بوصفى عميد السلك القنصلى أن أساعده فى الإفراج عنهما

اتصلت بالجهات السورية المسئولة بحلب فقالوا لى أن قوات الأمن ضبطت نائب القنصل وكاتبا بالقنصلية يتجسسون باللاذقية ويحاولون التقاط صور للميناء وللقوات السورية والمصرية وأنه بعد إجراء التحقيق سيتم الإفراج عن الأمريكى . واستأذنتهم فى إبلاغ ذلك الرد للقنصل الأمريكى فوافقوا .

أبلغت القنصل الأمريكى رد السلطات السورية فأنكر بطبيعة الحال واقعة التجسس وقال أن زميله جديد ، وله مصالح يود قضاءها فى اللاذقية ، وأنهم لو أرادوا التجسس للجأوا لطرق أخرى أكثر حرصا ودهاء . وفى اليوم التالى عاد نائبه إلى حلب أما كاتب القنصلية السورى فقد رحل إلى سجن المزة فى الشام .

وقد توثقت المعرفة والصداقة بيني وبين القنصل الأمريكى روى اثرتون منذ ذلك الوقت ، والتقينا بعد ذلك فى واشنطن عام ١٩٥٩ عندما كنت مستشارا لسفارة الجمهورية العربية المتحدة ، وهو رئيس لأحد أقسام الشرق الأوسط بالخارجية الأمريكية - والتقينا بعد ذلك فى أكثر من مناسبة حتى أصبح سفيرا لبلده فى القاهرة فى أوائل الثمانينات .

* * *

وفى حلب طبقة نشيطة من التجار ورجال المال والأعمال المسلمين والمسيحيين يمتلكون المعامل الوطنية (المصانع) وعدد من العائلات الموسرة من كبار ملاك الأراضى فى البادية السورية تزرع زراعة خفيفة ، وهم خليط من الشركس والأتراك وأهل حلب والشام . وبعض التجار المسيحيين يشغل مناصب قناصل فخريين لبعض الدول الأجنبية .

كانت فترة عملى فى حلب فترة عمل دبلوماسية غير تقليدية - وكانت حلب مركز الثقل فى الأحزاب السياسية السورية ويقيم فيها زعماؤها وقادتها من الفطاحل من الأحزاب المحافظة : الحزب الوطنى وحزب الشعب - د . عبد الرحمن الكيالى ، رشدى الكخيا ، ناظم القدسى - وإلى جوارهم يوجد حزب البعث العربى الاشتراكى الذى يحاول أن يسيطر على الشارع السياسى

يقوده فى حلب من الشباب عبد الفتاح زلط وأديب نحوى ، ثم الإخوان المسلمين بقيادة معروف الدواليبى .

كانت حلب تموج فى تلك الفترة من ٥٥ إلى ١٩٥٨ بالمشاعر الحماسية الوطنية الدافقة والمظاهرات تزحف على القنصلية المصرية فى المساء مطالبة بشعارات الوحدة والعروبة .

وعندما زار الرئيس الراحل أنور السادات حلب عام ١٩٥٧ ، وكان أنذاك رئيسا لمجلس الأمة المصرى على رأس وفد من المجلس يضم المرحوم فؤاد محيى الدين وغيره تأخر ركبه فى الوصول وغربت الشمس فاستقبلته الآلاف المؤلفة من الجماهير على مشارف المدينة بمظاهرة كبرى من حملة المشاعل ورفعت سيارته من فوق الأرض رفعا فنزل وعانق مستقبليه وبهر من روعة الاستقبال .

وعندما قدم عبد الناصر لأول مرة إلى حلب فى فبراير ١٩٥٨ عقب إعلان الوحدة بين مصر وسوريا تدفقت الجماهير على قصر المحافظة حيث كان يقيم . ولكن لوحظ أن الساحة المواجهة للقصر لا تكفى للأعداد الهائلة من المواطنين من حلب والأقضية المجاورة التى قدمت لاستقباله فانتقل إلى موقع آخر له شرفة تطل على ساحة فضاء كبيرة ليخاطب الجماهير .

وعندما أجريت الانتخابات للوحدة فى حلب توجهت للمرور على بعض صناديق الاقتراع وخاصة فى حى الأرمن فوجدت حماسا منقطع النظير للاقتراع للوحدة وعبد الناصر وأصروا فى كل موقع اقتراع على أن أدلى بصوتى قائلين لو كنت بمصر لكنت مارست حقك الانتخابى .

وهكذا كما أنشأت القنصلية المصرية العامة فى حلب عام ١٩٥٥ قمت بإغلاقها عقب إعلان الوحدة فى ٢٢ فبراير ١٩٥٨ وغادرتها إلى موقع آخر .

وهى من الحالات النادرة فى العلاقات الدولية التى يتولى فيها نفس الشخص إنشاء تمثيل قنصلى ، وإنهائه .

فى واشنطن

فى يونية ١٩٥٨ وصل واشنطن طاقم جديد للعاملين بالسفارة ابتداء بالسفير ، وذلك بعد الوحدة الاندماجية مع سوريا ، وأصبحت السفارة تسمى « سفارة الجمهورية العربية المتحدة » .

كانت تجربة رائدة فى العمل الدبلوماسى ، فالسفير مصرى ، ووزيران مفوضان أحدهما سورى والآخر مصرى ، وثلاثة مستشارون واحد سورى واثنان مصريان وهكذا . وأصبح المبنى الملحق بدار سكن السفير ـ السفارة المصرية (السابقة) ـ وهى من معالم واشنطن ـ هو القسم السياسى للسفارة ، وأصبحت السفارة السورية السابقة مكتب المستشار الثقافى ، فضلا عن ثلاثة مبان أخرى للمكتب العسكرى (مصرى) والمستشار التجارى والملحق الصحفى .

وكان السفير غير متزوج ، وكذلك الوزير المفوض السورى . وكنت أشغل منصب المستشار الثانى السياسى للسفارة .

استأجرت منزلا فى حى « تشفى تشيس » السكنى الهادىء القريب من العمل مكونا من دورين وحديقة خلفية وقمت بتأثيثه . وهذه الأمور ميسرة فى أمريكا بشكل مذهل . كل شىء موجود بوفرة والدفع فورى أو بالتقسيط .

أما زميلى المستشار السورى فقد علمت أنه اشترى شقة بالتقسيط وأنه سوف يبيعها عند نقله ويربح فيها نظرا للارتفاع المضطرد فى أسعار العقارات !

أدخلت تليفونا بالمنزل دون أى انتظار كما يحدث عادة فى الدول المتخلفة . واشتريت سيارة مستعملة لحين ظهور الموديلات الجديدة بعد بضعة شهور ، لأنه بدون سيارة لا تستطيع التحرك . والمجتمع الأمريكى قائم كله على السيارة : إنتاجا وتوزيعا ومحطات بترول وإصلاح واسعاف لجر السيارة عند تعطلها ، ومساحات هائلة لبيع السيارات المستعملة ومحلات قطع الغيار .

ولابد للسيارات من شبكة طرق ممهدة لا تعيقها موانع تخدمها الكبارى والجسور والأنفاق ، وطرق سريعة مختصرة مفروض عليها رسوم مرور .

وعلى جانبى الطرق تقوم صناعة ضخمة للموتيلات ، وهى الفنادق الصغيرة التى تعتمد على زبائن الطريق بسيارتهم تجدها على امتداد الطرق وعلى الشواطىء الطويلة والأماكن السياحية المتناثرة عبر القارة الأمريكية . ثم هناك المطاعم المتنوعة على طول الطرق وعرضها لخدمة المسافرين .

وأذكر أنه عندما زار خورشوف واشنطن عام ١٩٥٩ ذهل من العدد الهائل من السيارات الفارهة التى يركبها الموظفون فى طريقهم إلى عملهم إلى دوائر الحكومة الاتحادية والكابيتول ، كل فرد وحده فى السيارة وقد أغلقها مستمتعا بالإذاعة والتكييف . واقترح خورشوف تخصيص أوتوبيسات لتجميع أفراد كل مصلحة أو مؤسسة وتوفير الزحام واستهلاك الطاقة . ولكن قيل له أن هذا هو أسلوب الحياة فى أمريكا ، والمواطن الأمريكى يود أن يكون حرا فى حركته وانتقاله .

ومع كل هذه الأعداد الهائلة من السيارات خصوصا فى أوقات الذروة . فى الصباح وبعد الظهر تجد انضباطا وانسيابا فى حركة المرور ، وتتحول بعض المسارات فى الطرق الكبرى إلى اتجاهات مغايرة فتزداد فى التوجه إلى داخل المدينة أو إلى خارجها حسب أوقات دوام العاملين أو انصرافهم ، وهو أمر يحتاج ليقظة دائبة ومتابعة لإرشادات المرور ، وقد وجدت نفسى مرة أسوق سيارتى ضد إتجاه المرور لجهلى بهذه التغييرات .

توجهنا مرة بالسيارة إلى نيويورك وكان يقودها زميلى من المكتب العسكرى بالسفارة وبعد بلتيمور يظهر أننا فقدنا إحدى الإشارات ووجدنا أنفسنا نسير فى الاتجاه المضاد ولابد من الاستدارة . وعنّ لصديقى أن أسهل طريقة ـ لكى لا نضل الطريق ـ أن نعبر الجزيرة فى وسط الطريق ونواصل السفر . وفعلا استدار بسرعة للعبور إلى الجانب الآخر من الطريق السريع ، وكان شاغرا ، وإذا بالسيارة تغرز بنا فجأة ولا سبيل لنا إلى الحراك . وما هى إلا دقائق حتى جاءت سيارة شرطة المرور ودهش ضابط المرور كيف أوصلنا أنفسنا لهذا الوضع . فشرحنا له أننا مسافرين فى مهمة عاجلة لنيويورك

وتنكبنا الطريق وأبدينا أسفنا الشديد . وكان حازما فى أن الخروج عن الطريق بهذا الشكل يعتبر مخالفة مرورية ، ولكنه قدر ظروفنا - ولعله راعى كذلك اللوحة المعدنية الدبلوماسية . وأخذنا لأقرب محطة إصلاح سيارات على بعد بضعة كيلومترات ، فقام معنا عامل بسيارة مقطورة إلى موقع السيارة وأنتشلها من الحفرة .

وفى هذه الأثناء أردنا أن نتصل بنيويورك تليفونيا فوجدنا على جانب الطريق عدد من التليفونات العامة ، واتصلنا هاتفيا فى ثوان بنيويورك وقلنا لهم أننا سنتأخر بعض الشىء .

هذه الخدمات الميسرة فى كل مكان فى الطريق فى أماكن تبدو مقطوعة هى عنوان الحضارة والتقدم التكنولوجى المذهل فى أمريكا .

العمل الدبلوماسى فى واشنطن مدرسة - فالشاب الذى يرغب فى الدراسة الأكاديمية لما بعد البكالوريوس فى غير مواعيد العمل بالبعثة لديه خمس جامعات للالتحاق بإحداها . والدبلوماسى فى بلد فيها أكثر من مائة وثلاثين بعثة دبلوماسية (عدد دول العالم الآن ١٥٩) أى نحو ٢٠ ألف دبلوماسى (بعائلاتهم) هو كالسمكة فى المحيط ولديه صحف يومية وأسبوعية ومجلات أسبوعية ودورية لو أراد متابعتها لما وجد وقتا كافيا لمجرد قراءة العناوين .

وأذكر أننى اشتركت فى النيويورك تايمز الأسبوعية ، ووجدت أن العدد الأسبوعى لا يحتاج لعطلة نهاية الأسبوع فقط لتصفحه بل للأسبوع بأكمله . وبعد بضعة شهور تكدست الأعداد لدرجة أننا اتصلنا بشركة نظافة للحضور لنقلها من المنزل على نفقتنا ! وفى الدول المتخلفة تباع الصحف القديمة بالوزن بالكيلو .

أما التليفزيون الملون والمادة المنوعة التى يعرضها على مختلف القنوات فلا يعطيك وقتا لكى تقرأ شيئا بالمنزل وهو متعة مستمرة يصعب مقاومتها .

وأذكر أننا دعينا مرة على العشاء لدى بعض الأصدقاء الأمريكيين وعندما وصلنا فى الموعد لم نجد أحد بانتظارنا ، ووجدنا لافتة على الباب

الخارجى تقول : ادخلوا أننا نتابع مباراة « فوت بول » (الأمريكية) بجوار التليفزيون !

ولم نشعر أنا وعائلتى بالغربة خلال سنوات أقامتنا الثلاث فى واشنطن فلقد نجحت الولايات المتحدة بحكم تكوينها السكانى المتفرد فى أن ينصهر كل من يستوطنها فى البوتقة الأمريكية ويأخذ نفس العادات والسلوك والتفكير وأسلوب الحياة ويفخر بأنه مواطن أمريكى . وهو أمر تشاهده على امتداد القارة الأمريكية شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا مع فوارق طبيعية بين التجمعات السكنية .

وكان أفضل أصدقائنا الأمريكيين بعضهم من اليهود ـ وجيراننا الملاصقون كانوا عائلة يهودية . طبيب أسنان بفندق الشورام وكان يهوى التصوير الفوتوغرافى فأخذ للأولاد صورا فوتوغرافية كثيرة ملونة وكبرها مازلنا نحتفظ بها ، وكانت زوجته تخرج مع زوجتى وتدلها على أفضل المشتريات وأرخصها . وعندما جرحت ابنتى الصغيرة أثناء اللعب أمام المنزل سارعت هى بنقلها بعربة الأسعاف إلى مستشفى جورج تاون الجامعى .

وعندما نقلت ذهبت قبل سفرى لدى حلاقى المفضل وقلت له أننى سأترك الولايات المتحدة . فدهش الرجل ـ وكان يظن أننى أمريكيا ، وقال ولكنك تتكلم الإنجليزية بطلاقة . ذلك أن بعض الأمريكيين حديثى التجنس لغتهم « الأمريكية » محدودة ـ وعرض على خدماته بحرارة لمساعدتى لدى إدارة الهجرة للحصول على الجنسية الأمريكية !

* * *

عاصرت فترة الرئيس الأمريكى ايزنهاور وبداية مدة الرئيس كيندى . والولايات المتحدة كدولة عظمى كيان سياسى ضخم ، ومن الظلم لحليفاتها الأوربيين قياسها بهم لا من ناحية عدد السكان (٢٠٠ مليون نسمة) ولا الثروة ولا التقدم التكنولوجى ، ولا الطرق والمواصلات والمسافات الشاسعة . هى قارة بأسرها .

والإدارة الأمريكية تضم إلى جوار الرئيس المنتخب وجهازه بالبيت

الأبيض مجموعة من مراكز السلطة والقوى لتسيير دفة هذا الجهاز الضخم من وزارة مدنية ومؤسسة عسكرية (البنتاجون) وأجهزة الأمن القومى : وكالة المخابرات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالى . ويقوم نظام الحكم على مجموعة من التوازنات بين سلطات الرئيس الأمريكى والكونجرس (مجلس الشيوخ والنواب) والسلطة القضائية (المحكمة العليا وتوابعها) ثم هناك الولايات (٥١ ولاية) وحكامها ومجالسها المحلية المنتخبة وتشريعاتها الخاصة بها . وهناك العديد من المؤسسات وقوى الضغط المتمثلة فى أصحاب الصناعات الكبرى ، ورجال المال والأعمال ، وكبار الزراع واتحاد نقابات العمال والصحافة والإعلام ، واللوبى اليهودى ، والأقلية السوداء .

فالمجتمع متشعب وإيقاع الحياة فيه سريع ، ولكن سمته الظاهرة هى الحرية . ومع هذه الحرية فإن رقابة السلطة موجودة ، ولكن بطريقة غير محسوسة .

وأصعب مشكلة واجهتنا فى العلاقات الثنائية هى أزمة الباخرة كليوباترا . ففى ١٣ أبريل ١٩٦٠ أبلغتنا الخارجية الأمريكية أن عمال ميناء نيويورك يرفضون تفريغ شحنة الباخرة كليوباترا بناء على قرار الاتحاد الدولى لنقابات عمال الشحن والتفريغ والاتحاد الدولى لعمال الموانىء فى نيويورك ، علما بأن الباخرة تابعة لشركة بواخر البوستة الخديوية ، وتتمتع بجنسية الجمهورية العربية المتحدة .

وقد أوضحنا للجانب الأمريكى أن هذه المقاطعة سوف يترتب عليها أضرار بالغة للشركة ، ويمكن أن تتطور المسألة لتصبح أزمة فى العلاقات بين الولايات المتحدة ومصر والعالم العربى . وأن السبيل إلى تفادى ذلك هو تدخل الحكومة الأمريكية لإنهاء الاضراب ، وأن لدى الرئيس الأمريكى الصلاحيات القانونية لمثل هذا التدخل .

وكانت وجهة النظر الأمريكية أن أمر إنهاء المقاطعة معروض على المحكمة الفيدرالية بنيويورك فى ٢٣ أبريل وأنه ينبغى الانتظار لحين صدور حكم القضاء .

وقد توجهت إلى نيويورك لسماع حكم المحكمة الذى صدر برفضها طلب الشركة إلزام العمال بتفريغ السفينة باعتبار أن القضية هى من قبيل المنازعات العمالية .

وذهبت إلى حيث ترسو الباخرة فوجدت اثنين من العمال يحملان لافتات بالمقاطعة ويسيران فى تراخ أمام الباخرة ، وقيل أن هذا يشكل حسب التقاليد العمالية خطا وهميا قائما لا يجوز اختراقه !

وأخذت الأزمة فى التصاعد ، وبدأ الاتحاد الدولى للعمال العرب فى تعبئة الشعور ضد الولايات المتحدة . وأعلن الرئيس عبد الناصر أن العمال العرب ينظرون إلى الحادث على أنه إجراء عدائى ضد وطنهم له مساس بمصالحه وكرامته . وكانت لخطب عبد الناصر أصداءها القوية فى ذلك الوقت فى أنحاء العالم العربى .

وظهر اتجاه من جانب عمال الميناء الزنوج لتحدى خط المنع وتفريغ الباخرة بالقوة .

وقرر اتحاد العمال العرب مقاطعة السفن الأمريكية فى جميع الموانى العربية اعتبارا من منتصف ليل ٢٩ أبريل . وإزاء هذا التهديد وإزدياد الشعور العدائى لأمريكا وخشية الإضرار بالمصالح الأمريكية تدخلت الحكومة الأمريكية وأنهت المقاطعة .

ويبدو أن الهدف من المقاطعة كان محاولة التأثير على موقف الجمهورية العربية المتحدة من مرور السفن والبضائع الإسرائيلية فى قناة السويس .

وقد توجهت مرة أخرى إلى نيويورك وصعدت إلى الباخرة كليوباترا ونقلت لبحارتها وطاقمها وربانها تحية الحكومة بمناسبة إنتهاء المقاطعة .

وهكذا تم احتواء الأزمة ومرورها بسلام .

* * *

وقد ألقيت العديد من المحاضرات فى كثير من الجامعات والنوادى

والمؤسسات العسكرية حول مشكلة الشرق الأوسط . وفى أحداها فى يونية ١٩٦٠ سألتنى مجموعة متخصصة فى دراسات الشرق الأوسط عما سيكون عليه موقف مصر لو أنفصلت سوريا (وهم يعلمون أننى مصرى قادم من سوريا) وكان ردى أن الوحدة تمت بالإرادة الحرة للشعبين السورى والمصرى ، ولن تعترض مصر لو تم الانفصال بنفس الأسلوب الديمقراطى .

ولا يخفى على القارىء أن الانفصال بين مصر وسوريا تم فى سبتمبر ١٩٦١ . أما أسبابه ودوافعه فليس مجال شرحه فى هذه الأوراق المتناثرة .

بقى أن أشير إلى أن الرئيس جمال عبد الناصر قدم إلى نيويورك لحضور دورة الأمم المتحدة الشهيرة التى حضرها كذلك الزعيم السوفيتى خورشوف .

وقد توجهت بصحبة سفيرنا بواشنطن إلى نيويورك لنكون قريبين من الرئيس ، ونزلنا فى فندق الولدورف استوريا .

وكان مدير مكتب الرئيس ، وأفراد من سكرتاريته الخاصة قد قدموا قبلها إلى نيويورك ، وقاموا بمعاونة السلطات الأمريكية باستئجار فيلا خارج المدينة لإقامة السيد الرئيس ـ وقد توجهت لرؤية الفيلا وكانت مناسبة من كافة نواحى الراحة ووجود صالة مناسبة لعرض الأفلام فى عروض خاصة فى المساء استجابة لهواية الرئيس ، كما توجد أماكن فى الحديقة لإقامة أفراد الأمن والحراسة الخاصة .

وكان الرئيس يجرى مقابلاته فى مقر مكتب وفد مصر الدائم لدى الأمم المتحدة ، وقد قدم إلى نيويورك عدد من معاونيه فى مقدمتهم المشير عبد الحكيم عامر ، والأستاذ حسنين هيكل .

ولعل أهم لقاءاته كانت مقابلته مع الرئيس الأمريكى ايزنهاور .

وتقرر لأسباب أمنية أن يتولى قيادة سيارة الرئيس الكاديلاك الفارهة سكرتير أول بمكتبنا بنيويورك من أكفأ العناصر الموثوق بها .

والمعروف أن فى تلك الدورة خلع خروشوف حذاءه أثناء مداولات

الجمعية العامة ووضعه إلى جواره من قبيل الامتهان مما كان له مردود إعلامى مضاد له .

والواقع أن بعض الدول الكبرى تعامل الأمم المتحدة وبعض أجهزتها بنفس الأسلوب ، ولكن بدون حاجة لخلع الحذاء .

* * *

وبنهاية عام ١٩٦٠ غادرت وعائلتى نيويورك بالباخرة فى رحلة ممتعة استغرقت ثلاثة أسابيع كانت بمثابة أجازة لى حيث لم أحصل على أجازة طوال مدة خدمتى بواشنطن التى كانت فرصة عظيمة للتعلم والاستفادة والاستزادة .

* * *

الفصل الثانى

فى أفريقيا

فتيات « جيشا » أثيوبية

على أثر توقيع الملوك والرؤساء الأفارقة على ميثاق منظمة الوحدة الأفريقية فى أديس أبابا فى ٢٥ مايو ١٩٦٣ كلفنا بالسفر إلى أديس ضمن لجنة من « الخبراء » تقرر تشكيلها من خمس دول احداها من شرق أفريقيا ، وثلاث من غرب أفريقيا · اثنتان تتكلمان الانجليزية والثالثة تتكلم الفرنسية اضافة إلى مصر ودولة المقر أثيوبيا .

كانت مهمة اللجنة وضع لائحة الاجراءات وتنظيم الأمانة العامة للمنظمة . وتقدمت اللجنة فى أعمالها وبدأنا فى طرح الأفكار التنفيذية وصياغتها . كانت أكثر المعارضة تأتى من ممثل دولة فى غرب أفريقيا كان يشغل منصب مندوبها السامى فى بريطانيا ، وقد ندب معنا فى هذه اللجنة . وكان جهد كبير يبذل ووقت طويل يضيع فى محاولات التوفيق بينه وبين ممثلى الجانب الأثيوبى .

وبعد بضعة أسابيع دعينا لمأدبة عشاء رسمية وطنية من جانب الدولة المضيفة ـ وكانت قائمة الطعام تضم لحمة نيئة وبعض الخضروات المحلية ـ وقد أحاط بنا عدد من الفتيات الحبشيات الفاتنات بملابسهن البيضاء التقليدية لمساعدتنا على تناول الطعام ومن قبيل فتح الشهية .

وجاءت إلى إحداهن وجلست إلى جوارى وأخذت شريحة من اللحم النيىء وغلفتها بقطعة من الخبز الأسمر الاسفنجى الشكل وطمستها فى وعاء من صلصة الشطة وأرادت أن تحشرها فى فمى مستخدمة أظافرها الجميلة الطويلة المصبوغة بطلاء أبيض . ولكنى اعتذرت لها بأن معدتى حساسة ، ولا يمكن بحال أكل هذه التوليفة من اللحم النىء والشطة . لقد جربت فى السابق الكبة اللبنانية المفرومة من اللحم النيىء ولكن هذا أقصى ما استطعته . ونجحت فى نقل خدمات فتاة « الجيشا » على الطريقة الأثيوبية إلى جارى صديقى من شرق أفريقيا الذى رحب بها ، وكان ايجابيا معها على طول الخط .

وقد أخذ المضيف الأثيوبى يشرح لى الخلفية التاريخية وراء أكل اللحم نيئا . فقال إنه فى العصور الوسطى أيام الامبراطور منليك الأول كانت هجمات

المسلمين لا تنقطع على معسكرات القوات الحبشية ، وكان المسلمون ينجحون فى مفاجأة الأحباش ويوقعون بهم أفدح الخسائر ، وقد تحرى الامبراطور الأسباب فتوصل إلى أن المسلمين يتعرفون على مواقع المعسكرات من دخان طهى اللحوم فأصدر أوامره بعدم ايقاد النار وأكل اللحوم نيئة . وهكذا تعذر على المسلمين مباغتتهم بالهجوم . وعندما أرسلوا كشافيهم لمعسكرات الأحباش وجدوهم يأكلون اللحوم نيئة فارتاعوا وظنوا انهم يأكلون لحوم البشر من أعدائهم ولاذوا بالفرار وحافظت أثيوبيا على استقلالها من الغزاة .

ثم أديرت كؤوس من الشراب الوطنى اسمه توج . وعندما استفسرت عما إذا كان مشروبا كحوليا اتضح أنه مخمر من عسل النحل ، وإن تأثيره قوى بحيث يكفى تناول قدحان منه للعودة إلى الفندق إما مسنودا ، أو محمولا . وقيل أن المناحل منتشرة لديهم وخلايا النحل موجودة بكثرة فى المناطق الغنية بالأعشاب والزهور البرية . وان المشروبات الروحية تستخرج فى كل بلد من الخامات أو المزروعات المحلية الوفيرة ـ ففى أوغندا يقطر « الورجى » من الموز المخمر ، والساكى مشروب اليابان الوطنى يستخرج من الأرز ، وفى العراق العرقى من البلح حيث تكثر أشجار النخيل ، وفى السودان « البوظة » من الذرة العويجة ، وفى لبنان العرقى من العنب ، وفى أمريكا الوسطى الروم « عسل قصب السكر المخمر » ، وفى اسكتلندا الويسكى من الشوفان ، وفى الاتحاد السوفيتى الفودكا من القمح ، وفى فرنسا الشمبانيا من العنب من المقاطعة المعروفة بنفس الاسم فى شمال شرق فرنسا الشهيرة بنبيذها .

وعندما اجتمعت اللجنة فى اليوم التالى لم تخف معارضة زميلنا المندوب السامى فمال على صديقى من شرق أفريقيا وقال « يظهر أن الأكلة منفعتشى » .

كان قد مر على اجتماعاتنا نحو شهرين حينما تلقينا دعوة للقاء الامبراطور فى مكتبه بالقصر . وكان يتردد أن الامبراطور شخصيا يتابع أعمال اللجنة لأنه يود أن يثبت المقر فى أديس أبابا ، وأنه قد تبرع بأحد المبانى الحكومية الحديثة كمقر مؤقت للسكرتارية نجتمع فيه .

عندما توجهنا فى الصباح إلى القصر الامبراطورى أحكمنا إغلاق أبواب

السيارات حيث كان الأسد الشهير يتجول طليقا فى حدائق القصر لكنه كان أشبه ما يكون بأسود السيرك المدربة .

كان الامبراطور « هيلاسيلاسى » واقفا عند مكتبه بجسمه الضئيل يستقبلنا ويصافحنا . وألقى كلمة ترحيب وتشجيع باللغة الامهرية ، كان يتولى ترجمتها أولا بأول كبير الياوران . وفى أثناء القائه الكلمة وجدنا شيئا صغيرا يجرى بيننا ويقفز على المكتب ، واتضح أنه كلبه المفضل من نوع نادر أشبه بالظبى أو الغزال الصغير . وانفجر الأعضاء بالضحك لهذه المفاجأة . والملاحظ لمن عمل مع الأفريقيين انهم قوم بسطاء يضحكون لأتفه الأسباب .

وعندما انتهى الامبراطور من كلمته انبرى المندوب السامى يرد نيابة عنا ، وتوجسنا أن يلمح إلى بعض الخلافات فى الراى فى أعمال اللجنة ، ولكنه أخذ يشيد ويكيل المدح للأثيوبيين ، ويمجد الامبراطور رمز أفريقيا . . . الخ .

وانصرفنا بعد هذا اللقاء الموفق . وجاءنى زميلى من شرق أفريقيا مبتسما ابتسامة ذات مغزى وقال : لابد أن شيئا ما حصل الليلة الماضية مع المندوب السامى .

نسيت أن أقول اننى عندما ذهبت لأوغندا بعد عام تقريبا وجدته وزيرا للتجارة .

أمضينا فى أديس أبابا نحو ستة شهور أنهينا خلالها أعمالنا بنجاح وقد عرض بعد ذلك مشروع لائحة الاجراءات فى اجتماع وزراء خارجية الدول الافريقية الذى حضرناه فى لاجوس فى فبراير ١٩٦٤ لاقراره .

كانت أديس أبابا فى ذلك الوقت تتوسع عمرانيا وقد شيدت فيها « قاعة أفريقيا » تلك التحفة المعمارية الرائعة ، وقد الحق بها مكاتب اللجنة الاقتصادية لأفريقيا التابعة للأمم المتحدة ومكتبة حديثة ـ وظهر فيها عدد من فنادق الدرجة الأولى الفخمة .

وكانت أثيوبيا مجال منافسة وصراع أيديولوجى بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى . فالولايات المتحدة لديها جهاز دبلوماسى قوى ، وعدد كبير من الخبراء وقاعدة عسكرية بحرية ضخمة فى أسمرة ، والاتحاد

السوفيتى له سفارة كبيرة ومستشفى تخصصى متقدم يتردد عليه المئات من الأهالى يوميا وأفكاره تتسرب للشباب فى الجامعة والقوات المسلحة .

أما الامبراطور فكان يفضل فى التعامل الدول الاسكندنافية الصغيرة التى ليس لها مطامع ويعهد إليها بمشروعات البنية الأساسية فى بلده !

أما الشعب فكان يجمع بين البهجة والتدين . وقد حضرنا احتفالا دينيا كبيرا فى ساحة واسعة يتزعمه القساوسة من الرهبان المسيحيين الأرثوذكس . والمعروف انهم كانوا يتبعون الكنيسة القبطية المصرية وبابا الاسكندرية لعدة قرون إلى أن استقلوا عنها أخيرا . وفى المساء يرقصون فى النوادى والفنادق .

وقد شعرنا آنذاك أن اللجنة الاقتصادية التابعة للأمم المتحدة يسودها القلق من جراء قيام لجنة اقتصادية مماثلة ضمن اطار منظمة الوحدة الافريقية . مما سيترتب عليه القضاء على لجنة الأمم المتحدة وأخذوا يهيئون أذهانهم للرحيل .

والآن بعد ٢٣ سنة بقيت اللجنة الاقتصادية للأمم المتحدة وتقلصت اللجنة الاقتصادية بالمنظمة الافريقية وأصبحت لجنة اقتصادية اجتماعية . ولجنة الأمم المتحدة تضم مجموعة من الخبراء بعضهم غريبين عن الأوضاع الأفريقية يمضون عدة سنوات فى التعرف على مشاكل القارة ، ويضعون الدراسات والتقارير النظرية المطولة التى لا تقرأ ، ومن باب أولى لا تطبق . فمع كل جهود اللجنة مازالت الأوضاع الاقتصادية فى أفريقيا تتردى ويطل شبح الفقر المدقع والمجاعة من بلد لآخر وأولها اثيوبيا ذاتها .

هذه اللجنة تمثل نموذجا للفاقد الذى تعانيه المنظمة الدولية ويسبب عجزا دائما فى ميزانيتها وأولى بالأمم المتحدة أن توفر الرواتب التى تدفعها للجنة وتلغيها كلية فى مقابل تنشيط لجنة أهل القارة فى المنظمة الأفريقية .

إن ما تحتاجه أفريقيا ليس لجانا أكاديمية ، وإنما هو التدريب العملى والمزارع التجريبية ورأس المال والارشاد الزراعى ومكافحة الآفات .

وقد زرت أديس أبابا فى مهمة فى عام ١٩٦٨ فوجدتها تتقدم حضاريا وقد تضاعف عدد السفارات المعتمدة لديها لوجود مقر منظمة الوحدة الأفريقية

بها ، وأنشىء مطار حديث وشقت طرق فسيحة تظللها أشجار الكافور الباسقة ذات الأوراق الفضية والمستوردة من البرازيل ، وإن بقيت الأكواخ المغطاة بألواح الصفيح جنبا إلى جنب مع البنايات الحديثة الشاهقة .

والآن فى عام ١٩٨٦ تغيرت الأوضاع جذريا واختفى الامبراطور وما يمثله ، وبقى التساؤل هل الشعب الأثيوبى فى ظل النظام الجديد أحسن حالا مما كان عليه من ربع قرن ؟ هل أصبح أكثر ازدهارا اقتصاديا وأكثر تمتعا بالحرية وحقوق الانسان عما كان عليه فى السابق ؟

أوراق الاعتماد

فى أواخر عام ١٩٦٣ علمت من وكيل وزارة الخارجية اننى مرشح لأكون أول سفير لمصر فى أوغندا وطلب منى أن أبدأ فى الاستعداد للتنفيذ .

والواقع أن أوغندا لم تكن غريبة على فقد سبق لى أن زرتها ضمن وفد وزارة الرى المصرية لحضور احتفالات خزان أوين عند مخرج بحيرة فكتوريا فى مدينة « جنجا » والذى افتتحته الملكة اليزابيث ملكة بريطانيا عام ١٩٥٤ . وكان الهدف من بناء الخزان توليد الكهرباء لتغذية مناطق شاسعة بالطاقة فى كل من أوغندا وكينيا ، وتخزين المياه فى بحيرة فيكتوريا لاستخدامها من جانب مصر والسودان فى وقت التحاريق وساهمت مصر بمليون جنيه ضمن نفقات البناء .

بهرتنى أوغندا عند زيارتى الأولى لها بجمالها الطبيعى وخضرتها الزاهية مرتفعات وهضاب ، ولكن ليس الارتفاع المرهق مثل أديس أبابا ، ومناخ معتدل طوال العام مع أمطار موسمية لا تحتاج لتكييف تبريدا او تدفئة . بل ربيع دائم طوال العام . فهى بحق كما وصفها ونستون تشرشل « لؤلؤة أو درة أفريقيا » .

وكما هى العادة فى مثل هذه الأحوال يبدأ السفير بالتوجه لادارة المراسم

بوزارة خارجيته للحصول على أوراق الاعتماد الموجهة من رئيس دولته لتقديمها لرئيس الدولة الموفد إليها . وتشير عادة إلى الرغبة فى توثيق عرى الصداقة القائمة بين البلدين ، وأن الاختيار قد وقع على شخص السفير بماله من ثقة فى اخلاصه وصفاته وقدراته مما يجعله على ثقة أيضا فى نجاحه فى المهمة التى عهد إليه بها ، وأن رئيس الدولة الموفدة يرجو أن يمنح سفيره المساعدة ، وأن تضفى عليه الرعاية ، وأن تتقبل منه الرسائل التى سيحملها إلى رئيس الدولة الموفد إليها مع أطيب التمنيات بالسعادة والرفاهية . ويوقع عليها وزير الخارجية إلى جانب توقيع رئيس الدولة الموفدة .

قابلت المختصين فى ادارة المراسم فقالوا لى أن القاعدة بالنسبة لدول الكمنولث البريطانى هو أن رئيس الدولة هو ملكة بريطانيا ، وأن أوغندا بوصفها كذلك فإن أوراق الاعتماد معنونة من الرئيس عبد الناصر للملكة . وعندما قلت لهم أنه حسب معلوماتى أن رئيس أوغندا هو كاباكا (ملك) بوجندا رغم عضويتها فى الكمنولث تلفت المشرف على المراسم ومعاونه لبعضهما البعض وبنظرة فيها شىء من الاستنكار والتحسر : استنكار لجهل السفير الجديد بالوضع السياسى فى البلد الموفد إليه ، وتحسر من أن « حكومة الثورة » توفد سفراء من الشبان الجدد قليلى المعرفة ـ وكنت أكاد أجاوز الاربعين عاما .

وصلت إلى كمبالا ونزلت وعائلتى ـ زوجة وثلاثة أطفال ـ فى أكبر فنادق المدينة ، وحضر لمقابلتى مندوب من ادارة المراسم الأوغندية للاتفاق على موعد تقديم صورة من أوراق اعتمادى لوزير الخارجية ، والتعرف على تقاليدهم فى حفل تقديم أوراق الاعتماد .

وسألته فى سياق الحديث على نحو لا يشعر معه باستفسارى عمن تعنون باسمه أوراق الاعتماد فقال : سير ادوارد فردريك موتيسا الثانى رئيس أوغندا (وكاباكا بوجندا) ـ وأضاف بأنهم سعداء بأن مصر كانت من أوائل الدول التى بعثت بسفير لها إلى كمبالا ، وأنهم بصدد وضع قواعد للمراسم ، وليست لديهم تقاليد بحكم حداثة عهدهم بالاستقلال ، وأن تقديم أوراق الاعتماد للرئيس الأوغندى سيتم خلال أيام قليلة .

إذن وقعنا فى المحظور ومعى أوراق الاعتماد الغلط ـ دعوت على الفور زملائى أقطاب السفارة وهما اثنان للتشاور . وكان من الأفكار المطروحة ارسال برقية رمزية عاجلة للوزارة وطلب أوراق اعتماد جديدة مع مبعوث خاص ـ ولكن كم يستغرق تنفيذ ذلك من الوقت ؟ أسبوعين أو ثلاثة على أقل تقدير . وما مردود ذلك فى الوزارة ؟ كيف يسافر السفير ومعه أوراق موقعة من الرئيس عبد الناصر خطأ ؟ ومن المسئول ؟ وما الحل لو تحدد موعد مقابلة رئيس الدولة خلال بضعة أيام كما قال مندوب المراسم الأوغندى ؟

وقررنا احضار أوراق الاعتماد لمراجعتها . فوجدناها مكتوبة باللغة العربية وبالخط الكوفى الجميل ومعها ترجمة انجليزية بالآلة الكاتبة واسم الملكة مكتوب على المظروف . ووجدنا الحل ، وهو تغيير المظروف وكتابة اسم الرئيس الأوغندى عليه بالحروف اللاتينية وتسليمه فى اليوم التالى حسب الموعد لوزير الخارجية .

وتحدد موعد لقاء الرئيس الأوغندى بعد ثلاثة أيام تسلم فيه المظروف الذى يحوى الترجمة الانجليزية الصحيحة باسمه الكامل وألقابه حسبما أخذناها من ادارة المراسم الأوغندية ، ومعه أوراق الاعتماد باللغة العربية بنقوشها الكوفية التى يجد حتى من يعرف العربية صعوبة فى فك رموزها على حالها .

وفى أثناء خدمتى الطويلة فى السلك الدبلوماسى بعد ذلك اكتشفت أنه فى بعض الأحيان يحضر السفير ، ولا تكون أوراق اعتماده جاهزة ، ويطلب إليه السفر بصفة عاجلة فتتفق معه ادارة المراسم فى البلد الموفد إليه أن يقدم مظروفا يحوى أوراقا على بياض حتى تصل أوراق الاعتماد الموقعة من رئيس دولته فيسلمها لادارة المراسم ـ وفى أحوال أخرى يسافر السفير من بلده وينسى أوراق اعتماده ويتحدد موعد تقديمها دون أن تكون قد وصلته ـ وفى احدى دول أمريكا اللاتينية بعد وصول السفير وقبل تقديمه أوراق اعتماده حدث انقلاب ، وتولى السلطة رئيس جديد للدولة وحرصا على أن يقدم السفير أوراق اعتماده للنظام الجديد طلبت منه ادارة المراسم أن يقدم لرئيس الدولة مظروفا يحوى أوراقا بيضاء حتى لا تتأخر مراسم تقديم أوراق الاعتماد ولكى

تبدأ مهمة السفير بصفة رسمية إلى حين وصول الأوراق موقعة من رئيس دولته باسم الرئيس الجديد .

وفى أثناء مدة خدمتى بأوغندا التى امتدت قرابة خمس سنوات حدث صراع على السلطة بين رئيس الوزراء ملتون أوبوتى وبين رئيس الدولة ـ الكاباكا أسفر عن هرب الكاباكا إلى انجلترا واستيلاء أوبوتى على السلطة وتنصيب نفسه رئيسا لأوغندا عام ١٩٦٦ . وقد رئى حينذاك ألا توجد حاجة للسفراء المعتمدين أن يقدموا أوراق اعتماد جديدة باسم الرئيس الجديد ، والاكتفاء بأوراق الاعتماد السابق تقديمها وذلك تفاديا للضغوط أو المطالب التى قد تتقدم بها بعض الدول ـ خاصة الكبرى ـ للموافقة على الوضع الجديد . وهكذا بقيت أوراق اعتمادى على حالها وأصبحنا جميعا سفراء معتمدين لدى الدولة رغم تغير اسم رئيسها من « الملكة » إلى « الكاباكا » ـ (وقد مات) إلى الرئيس أوبوتى (وقد عزل) ! .

فى صحتك

توجهت لتقديم أوراق اعتمادى فى ابريل عام ١٩٦٤ إلى المنتجع الذى يقيم فيه الرئيس الأوغندى ، ويقع على ربوة فى جنوب كمبالا يطل من بعد على بحيرة فكتوريا تحيط به المزارع والأشجار الباسقة فى هدوء ساحر . وكانت الساعة تقارب الحادية عشرة صباحا .

دخلت إلى غرفة انتظار صغيرة مؤدية إلى قاعة أكبر ستجرى فيها مراسم تقديم أوراق الاعتماد ، وكان الترتيب أن ألقى كلمة قصيرة بهذه المناسبة فى حضرة فخامة الرئيس الأوغندى باللغة الانجليزية أعطيت صورتها لوزارة الخارجية ، ويرد عليها فخامته بكلمة مماثلة .

وكانت كلمتى تدور حول النيل الخالد الذى يربط بين أوغندا فى منبعه ومصر فى مصبه عبر التاريخ ، وسعادتى بالعمل أول سفير لمصر هناك وتطلعى لتنمية العلاقات وتعزيزها فى كافة المجالات التجارية والزراعية والثقافية الخ ،

وتشرف بأن أنقل تحيات الرئيس عبد الناصر للرئيس الأوغندى ، وأصدق تمنياته لأوغندا بالتقدم والازدهار بعد أن حصلت على استقلالها وحررت ارادتها .

وبعد تبادل الكلمات فى حضور وزير الخارجية ومديرى المراسم الملكية ومراسم وزارة الخارجية جلست جلسة خاصة بجوار الرئيس ، وكان يرتدى جاكتة سوداء ، وبنطلونا مقلما غامقا ، وحذاء أسود طويلا من نوع ركوب الخيل ، ودار بيننا حديث ودى ، ثم قدموا لنا كأسين من الشمبانيا فتناول كأسه وقال : فى صحتك .

وتناولت كأسى وارتشفت قليلا منها وأنا أفكر فى كلمات مناسبة للانخاب . وفجأة انفجر الرئيس ضاحكا . وتحسست قميصى وملابسى لعلى سكبت شيئا عليها ، ولكنه لم يحدث . وشعرت بشىء من الحرج ، ولكنى بقيت هادئا مبتسما حتى استتشف الأمر . وبعد أن انتهى الرئيس من الضحك قال : ربما انك تتساءل عما دعانى للضحك .

قلت : الواقع كذلك ، وإن كنت مسرورا أن أرى فخامته سعيدا . .

قال : إن سبب ضحكه اننى شربت فى صحة نفسى . ! وأنه كان المفروض عندما اقترح النخب فى صحتى أن يشرب هو وحده .

قلت : ولكنى شعرت أن من اللائق أن أشارك فخامته الانخاب ، ولا أتركه يشرب وحده .

ودار حديث ودى وطويل .

وقبيل الانصراف فتح باب القاعة ، وقدمت له الزملاء كبار العاملين بالسفارة ، وانصرفت بمثل ما قوبلت به من حفاوة وترحاب .

وقد ظلت هذه الواقعة التى استهللت بها عملى كسفير تلح على كلما ذهبت لبلد وأسأل مدير المراسم والسفراء القدامى من الزملاء هل من المفروض عندما يشرب جمع فى حفل نخب صحة أحدهم أن يمتنع هو عن الشراب . فوجدت أن غالبيتهم تستغرب السؤال ، وتقول بأن يشاركهم

الشراب ولو كان ماء قراحا . ووجدت فى دول أوربا الشرقية يتقارعون الانخاب ويشربون فى صحة أى شىء وكل شىء .

والآن ما رأى القراء وما رأى جهابذة البروتوكول ؟

دار سكن السفير

تُصادف رئيس البعثة الذى يكلف بانشاء بعثة دبلوماسية فى بلد لأول مرة الكثير من المهام والمشاكل الادارية فى مقدمتها البحث عن مقر مناسب لمكاتب البعثة ودار سكن لائقة لرئيس البعثة وتأثيثها وشراء سيارات رسمية للركوب وللخدمات وتأمين وسائل الاتصال ببلده الخ .

وقد قررت ـ وكنت أقيم بأكبر فنادق كمبالا فى جناح خاص ومعى زوجتى وأولادى ـ أن أشترى دارا لسكن السفير رغم أن عندى اعتماد الايجار السنوى ، ولكنى فكرت فى أن أوغندا هى التى تلى السودان جغرافيا وهى من بلاد منابع النيل ويقتضى الأمن القومى المصرى أن يكون لنا فيها وجود مستقر .

وبعد البحث الطويل والتحرى الشاق جاءنى صديق باكستانى الأصل من كبار الملاك ومن زعماء الطائفة الاسماعيلية يعرض فيلا رائعة على ربوة تل « كولولو » وهى احدى القمم التسع التى تتكون منها كمبالا فى منطقة سكنية أنيقة هادئة صممها مهندس ايطالى تحيط بها حديقة واسعة .

اتضح من معاينتها انها مناسبة ، وأن سعرها معقول ، بقى اقناع الوزارة بالقاهرة بأفضلية الشراء على الايجار وتحويل المبلغ المطلوب . وأرسلت برقية مفصلة بذلك للوزارة على أن أبعث لهم بالحقيبة بتقرير مدعم بالرسومات الهندسية والصور .

ولكى أسهل على الوزارة مهمتها وأقنعها بالشراء قابلت مدير أحد بنوك الدول الأجنبية الآسيوية الصديقة ، وعرضت عليه أن أودع لديه اعتمادات السفارة حديثة الانشاء وطلبت منه الحصول على المبلغ المطلوب لشراء دار

سكن السفير على أن يخصم منه الاعتماد المخصص للايجار سنويا حتى يتم تسديده مع الأرباح فى عدد من السنوات . وقد أبدى مدير البنك تفهما واستعدادا للقبول مع عرض الأمر على المركز الرئيسى فى بلدة لأنهم بنك تجارى وليسوا بنكا عقاريا ، ولكنهم يرحبون بالتعامل مع السفارة المصرية .

وعندما أرسلت الأوراق للقاهرة كان مردودها عكسيا وانزعجت الوزارة واعتبرت أن الاتفاق مع البنك ـ اذا تم ـ فسوف يعنى رهن دار سكن السفير لحين سداد الأقساط ، وهو أمر لا يليق بحكومة تحترم نفسها .

وسكت ولم أخبر المالك بشىء وأشفقت من ضياع الفرصة ، وأوضحت للمسئولين بالوزارة بأننا لم نتفق مع البنك على شىء ، وانما مجرد محاولة لتيسير الحصول على ثمن الدار . وأنتهى الموضوع عند هذا الحد .

وفجأة بعد بضعة ايام جاءنى المشرف على حسابات السفارة وأبلغنى انه تلقى مبلغا محولا من الوزارة يوازى ثمن دار السكن المطلوبة ، فأخبرنا المالك بالموافقة على الشراء . ويبدو أن الوزارة قد اعادت النظر فى الأمر وقررت الاستجابة لمبادرتى .

وقد حدث بعد ذلك أن بدأت الدول الكبرى أوربية ـ شرقية وغربية ـ واسيوية تنشىء بعثاتها الدبلوماسية فى أوغندا . وتضاعفت أسعار المبانى ، وقل عدد المبانى المناسبة سواء للمكاتب أو سكن السفارات . وقفز ثمن دار السكن التى اشتريناها خلال سنوات عدة مرات ، فضلا عن أنى أمضيت فى كمبالا خمس سنوات ولو كنا اقمنا بالايجار لأهدرت الأموال التى دفعت فى الايجار السنوى ، ولتعذر الشراء لغلاء الأسعار .

العلم الوطنى

فى فترة الصراع على السلطة بين رئيس الوزراء ملتون أوبوتى والكاباكا صدرت الأوامر بحظر التجول من غروب الشمس إلى شروقها ، واستمر الحال على ذلك أكثر من شهرين . وهو أمر مألوف لمعظم الدبلوماسيين الذين عملوا

بالدول الافريقية السوداء التى واجه معظمها منذ استقلالهاق أوائل الستينات انقلابات عسكرية .

وقد اضطر الدبلوماسيون إلى تغيير أنماط حياتهم بحيث يلزمون منازلهم بالليل ، ويعقدون اجتماعاتهم وينقلون نشاطهم الاجتماعى ولقاءاتهم أثناء الغداء . وأصبح حديثهم يدور حول حلقات التليفزيون التى يجبرون على مشاهدتها ويتابعون أحداثها وكانت تعرض المسلسل الأمريكى « الهارب » .

ومن المعروف فى البروتوكول أن قواعد رفع علم الدولة فوق دار سكن رئيس البعثة هو نشرة على صاريته من الصباح حتى غروب الشمس .

غير أنه إزاء المخاطر الأمنية التى قد تتعرض لها البعثات الدبلوماسية ودور سكن رؤسائها رئى أن يترك العلم الوطنى مرفوعا على الصارية نهارا وليلا على الدوام ، وقيل فى تبرير ذلك أن بعض الأفراد من قطاع الطرق والمجرمين يحاولون سرقة المنازل ليلا فإذا وجدوا علما مرفوعا خشوا أن يكون صاحب المنزل من الحكام الانجليز ، أو أصحاب السلطة فيهربون ويتفادون اقتحامه .

ولما كان علم الدولة هو عهدة مكتبية تبعث به الوزارة إلى السفارة ولا يغير من الأمر شيئا انك تعمل فى دولة أفريقية يحتاج الأمن فيها إلى رفع العلم باستمرار ، وهذا يعنى تمزقه بسرعة بحكم عوامل التعرية والأمطار الغزيرة ـ والعلم هو عنوان الدولة ، وينبغى أن يكون دائما ألوانه زاهية وسليما غير ممزق . ومن المخجل أن فى كثير من دول العالم الثالث المتخلفة نجد الأعلام المرفوعة على دور الحكومة ومؤسساتها باهتة اللون أو ممزقة .

أخذت عينة من العلم المصرى وتوجهت إلى الحى الوطنى فى كمبالا ، وكلفت أحد المحلات ـ منجد لانه لا يوجد متخصص فى صناعة الأعلام ـ بعمل دستة أعلام وفقا للعينة بحيث تكفينا على مدار السنة . . وبقى علم الدولة مرفوعا فى جميع الأوقات .

خذ ما تشاء

فى عام ١٩٦٥ جاءتنا مذكرة من وزارة الخارجية الأوغندية . ادارة المراسم بأن ملك ولاية « تورو » قد توفى ، وإن مراسم تشييع الجنازة والدفن ستقام فى عاصمة الأقليم فى مدينة « فورت بورتال » .

تقع مدينة فورت بورتال فى غرب أوغندا فى مناطق جبال « الروينزورى » او جبال القمر حيث تسكن قبائل الأقزام وتشتهر بزراعة الشاى لارتفاعها ، وتوجد بها مصانع يملكها الهنود والباكستانيين لتعبئته وتصديره . كما توجد بها مناجم « كليمبى » للنحاس الذى تستخرجه شركة كندية وتنقله لصهره فى « جنجا » على بحيرة فكتوريا ثم تصديره من « ممبسا » فى كينيا على الساحل الشرقى ـ وجبال الروينزورى ويبلغ ارتفاع قمتها ١٦٧٦٣ قدم (٥١٢٩ مترا) تكسوها الثلوج والجليد وتغلفها السحب الداكنة .

تدفقت ارتال سيارات السفراء ترفع أعلامها من كمبالا إلى « فورت بورتال » فى طريق اسفلت ممهد منذ وقت الوجود البريطانى تحفه الأشجار والبحيرات ، ويستغرق نحو أربع ساعات .

وعندما وصلنا إلى الفندق بعد الظهر وجدت عددا من السفراء يتناولون الشاى فى حديقة الفندق ـ وفى المساء جاءنى سفير احدى الدول الآسيوية الشيوعية الكبرى ومعه المترجم ، وكان يبدو عليه القلق . وسألنى هل أحضرت معى أكليلا من الزهور لوضعه على قبر الملك المتوفى . فاجبته بالنفى . فقال أن بعض السفراء قد أحضر أكليلاً معه من كمبالا . قلت له فليحاول مع ادارة الفندق لعلها تجد له مخرجا .

وبعد قليل جاءنى مرة أخرى وأبلغنى ـ عن طريق المترجم ـ أنه طلب من ادارة الفندق تدبير أكليل من الزهور فأشاروا له إلى النجيل فى حديقة الفندق ليعمل منه الأكليل ! قائلين له خذ ما تشاء !
واضاف أن هذا غير عملى ولا توجد محلات للزهور فى هذه المنطقة النائية وبرنامج الصباح يبدأ من التاسعة ولا يوجد وقت .

اقترحت عليه أن يقابل عميد السلك الدبلوماسى وهو معنا بنفس الفندق ، وأبديت له استعدادى أن أذهب معه . فقال أنه قابله وأن العميد أحضر معه اكليلا ، ولكن لكى يقدمه باسم حكومته الاتحادية . وأنه رفض أن يفعل ذلك باسم رؤساء البعثات الدبلوماسية بإباء وشمم .

فى صباح اليوم التالى توجهنا فى رتل طويل من سيارات المسئولين فى الحكومة والسادة السفراء إلى المخدع الذى سيوارى فيه جثمان الملك الراحل وشققنا طريقنا وسط الفوضى والزحام المألوف فى مثل هذه المناسبات ، ولم تكن هناك مقاعد كافية لجلوس كبار المدعويين .

ووقف حاملو الأكاليل صفا حتى أشار إليهم المشرف على الاحتفال بوضع الأكاليل فقاموا بوضعها حول الحفرة التى سيسجى فيها تابوت المتوفى وسقط كثير منها داخل الحفرة .

وأطلقت الموسيقى العسكرية أبواقها وجىء بالتابوت فإذا به مصنوع من النحاس هدية لأسرة الملك الراحل من مناجم نحاس « كليمبى » ـ وعندما أنزل التابوت اتضح أنه أطول من الحفرة . وكان ملكا عملاقا ـ فأشار المشرف إلى عساكره برفع أكاليل الزهور وتفريغ الحفرة .

وما هى إلا دقائق حتى نزعت الأكاليل ورميت خارج السور وديست بأقدام الأهالى المتفرجين وبدىء فى توسيع الحفرة بالمعاول والفؤوس .

ونظرت لكى أرى الانطباع لدى عميد السلك ممثل الدولة الأوربية الغربية الكبيرة ، فوجدته لم يحتمل الموقف وترك مكان الاحتفال مسرعا إلى الخارج .

بقى أن تعرف أن الذى نيط به الاشراف على مراسم الدفن هو « قائد القوات المسلحة الأوغندية آنذاك البريجادير عيدى أمين !

وفى المساء تجمعنا مرة أخرى ولكن بمناسبة تولى ابنه السلطة ملكا « أوموكاما » وهو الاسم التقليدى لملك تورو .

وانبرى سفير دولة هى زعيمة العالم الغربى يلقى كلمة ينقل فيها تحيات

حكومة بلده وشعبها إلى مملكة تورو وأهلها ، ويقدم هدية عبارة عن طقم شاى وصينية من الفضه .

وكان يقف إلى جانبى أحد أصدقائى من السفراء يمثل احدى كبريات دول عدم الانحياز . فقال : أراهن أن بلد ذلك السفير لا تعرف أين تقع أوغندا فما بالك « بتورو » وأضاف ألا تعلم أن أوبوتى يحاول توحيد أوغندا ويخطط للقضاء على هذه الملكيات القبلية نهائيا .

وكانت أوغندا عند استقلالها عن بريطانيا عام ١٩٦٢ تضم عددا من الممالك القبلية فى الجنوب أكبرها بوجندا ، ويلقب ملكها « كاباكا » « وانكولى » وملكها « أوموجابى » وكل من « تورو » « وبنيورو » ويلقب الملك فيها « أوموكاما » .

وفعلا الغى « أوبوتى » هذه الممالك التقليدية عام ١٩٦٧ وجعلها مقاطعات تتبع الحكومة المركزية رأسا ويرأسها حاكم معين من قبل الرئيس الأوغندى .

الذبابة

بعد أن أمضيت عدة أعوام فى أوغندا قررت زيارة منطقة « كاراموجا » التى تقع فى أقصى الشمال الشرقى تحدها كينيا شرقا والسودان شمالا ، وهى مقاطعة لا يسمح للأجانب بدخولها إلا باذن خاص .

وهى منطقة شديدة الجفاف شديدة الفقر لا يتجاوز عدد سكانها ٣٠٠ الف نسمة وتبعد عن كمبالا بنحو ٤٢٠ كيلو مترا .

وقد وصلنا بالسيارة إلى معسكر يتبع الأمم المتحدة ، وكان يرافقنى فى الرحلة مدير مكتب الرى المصرى المهندس عبد الهادى سماحة المقيم فى جنجا . (وأصبح وزيرا للرى المصرى من ٧٨ ـ ١٩٨٣) . وكان فى استقبالنا بالمعسكر المهندس المقيم وهو أمريكى الجنسية ويشرف على تنفيذ مشروع تتولاه منظمة الأغذية والزراعة لاستخراج المياه من باطن الأرض لشرب المواطنين .

والمعسكر عبارة عن عربة كارفان ، وبضع خيام للضيوف وللعاملين والحرس الأفريقيين يحوط به سور من الأعشاب . ويسكن الأمريكي فى عربة الكارفان ، ربما لأنها أسلم من الناحية الأمنية فى تلك المنطقة النائية التى لا يصلها الرجل الأبيض . وخلفها وضع خزانا فوق الأشجار يتدلى منه كوز مخرم وحبل يشده فتتقاطر منه المياه ويستعمله كدش للاستحمام !

وقد توجهنا فى صباح اليوم التالى إلى أحد صنابير المياه الجوفية بصحبة المهندس الأمريكى الذى يعرف بعض كلمات للتفاهم باللهجة المحلية . ووجدنا الأهالى متجمعين يحملون جرارهم والأوانى لملئها بالمياه العذبة ، وغالبيتهم من النساء جميعهن صدورهن عارية حسب المألوف فى هذه المنطقة .

وأخبرنا المهندس أن السيدات المتزوجات يلبسن جونلة من القماش السميك ، أما البنات غير المتزوجات فيلبسن جونلة من جلود الحيوانات وعليها عدد من الأحزمة . وترى الرجال يشتغلون بفلاحة الأرض ، أو يتجمعون فى سوق القرية عرايا إلا من قطعة من القماش تتدلى من كتفهم .

وقد أكبرت ذلك العمل الذى يشرف عليه الأمريكى فى دق طلمبات المياه خدمة لأهالى تلك المنطقة النائية . وعلمت منه أنه يقضى نحو ثلاثة شهور بالمنطقة ، ثم يعود إلى نيويورك فى اجازة طويلة وهكذا . وإنى أشك فى أن أحدا بالأمم المتحدة يسمع عن ذلك الجندى المجهول الذى يعيش فى ظروف بدائية قاسية ، وعن ذلك العمل الجليل الذى يؤديه . وقد لاحظت أنه يتعاطى المشروبات الروحية باستمرار ربما فى محاولة للتغلب على ظروف الحياة الموحشة التى يحياها مهما كان عائدها المادى عليه .

وبعد يوم آخر واصلنا السفر إلى حديقة الحيوان البرية المسماة « كيديبو » وهى على حدود السودان وقابلنا الانجليزى المشرف عليها ، وهى ليست غنية بالحيوانات مثل حديقة شلالات مارشيزون التى تقع فى شمال غرب أوغندا والمعروفة للسياح .

وفى طريق عودتنا عند أحد الروافد المائية فى شمال « كاراموجا » وقفنا عند نقطة تفتيش صحى . وجاء شخص أفريقى مدرب يحمل فى يده شبكة

مصيدة للحشرات ويلبس معطفا أبيض وأخذ يتطلع داخل السيارة بعيون يقظة حادة دون أن يقول شيئا . ونزلنا من السيارة وتوجهنا إلى مكتبه وهو استراحة وغرفة نظيفة على جانب الطريق . وجاءنا بعد التفتيش وبخ السيارة بالمطهرات ، وقال كل شيء على ما يرام . فسألته عن مهمته فقال انه يصطاد ذبابة « التسى تسى » . ووجدته معلقا على الحائط صورا ونشرات وتحذيرات من هيئة الصحة العالمية . والمعروف إن ذبابة أو بعوضة « التسى تسى » هى التى تتسبب فى مرض النوم لدى الأفريقيين .

وسألت الممرض الأفريقى عما إذا كانت تلك الذبابة موجودة فى هذه المنطقة ففتح درج مكتبه وأرانى بضع حشرات من التى التقطها بشبكته وقتلها .

شكرته على كفاءته وقفزت فى السيارة وقلت للسائق إلى كمبالا بغير توقف ، وحاولت النوم ، ولكن صورة ذبابة التسى تسى كانت تؤرقنى .

أعتقد أن قليلا من الدبلوماسيين هو الذى يعرف حق المعرفة المخاطر التى يتعرضون لها فى مناطق الخدمة الشاقة .

هجوم ودخان

فى ربيع عام ١٩٦٦ ـ وعلى وجه التحديد بعد ظهر يوم ٢٤ مايو ـ شاهدنا من دار السكن سحبا كثيفة من الدخان تغطى سماء شمال شرقى كمبالا ، لا تكاد تهدأ حتى تتصاعد مرة أخرى ، ولا أحد يدرى على وجه التحديد أين يقع ذلك الحريق الهائل .

وفى العصر بدأت المعلومات تصل بأن القوات المسلحة الأوغندية بمدفعيتها بدأت منذ الصباح تهاجم قصر الرئيس الأوغندى « الكاباكا » وتدكه دكا بالقنابل . وقد تحصن الكاباكا داخل قصره ، تدافع عنه قوات حرسه الخاص شديدة الولاء له من أبناء بوجندا ، ويقود الحملة ضده البريجادير جنرال عيدى أمين قائد القوات المسلحة بناء على تعليمات من رئيس الوزراء ملتون أوبوتى الذى كان قد نصب نفسه رئيسا تنفيذيا للبلاد .

وحتى مساء ذلك اليوم لم تكن قوات الحكومة قد نجحت فى اقتحام القصر ، وإن كانت قد أوقعت به خسائر مادية كبيرة ، وذلك بفضل استبسال المدافعين عن الكاباكا .

وأخيرا بعد أن نجحت قوات الحكومة فى اقتحام القصر والسيطرة على الموقف لم تجد الكاباكا حيا أو ميتا ، وكان فيما يبدو قد هرب من باب سرى إلى الغابة المجاورة واختفى فيها بعد أن غير زيه . ولم تستطع قوات الحكومة من اقتفاء أثره .

وقبيل مغرب ذلك اليوم جاءنى على عجل أحد أصدقاء السفارة من وزراء الكاباكا وقال : وهو يشاهد سحب الدخان انهم يحاولون قتل الكاباكا ، ورجانى التدخل لدى أوبوتى لانقاذ حياته . وقد أفهمته ان هذه مسألة داخلية وصراع على السلطة لا يمكن أن نزج بأنفسنا فيه .

وبعد أيام ظهر الكاباكا فى لندن حيث طلب حق اللجوء السياسى ! ومنح إياه .

والواقع أن الهجوم على قصر الكاباكا كان ذروة فترة طويلة من الصراع بين أوبوتى والكاباكا بدأ عقب الاستقلال ، وكان واضحا لنا خلال أعوام ١٩٦٤ إلى ١٩٦٦ .

وبغير حاجة إلى الدخول فى تفصيلات معقدة ، فإن أوبوتى وهو من قبيلة من شمال أوغندا حاول منذ البداية دمج بوجندا أكبر الممالك ضمن بوتقة الوحدة الوطنية الأوغندية على الأقل من الناحية النظرية ولم يكن ذلك سهلا .

فبوجندا مملكة قبلية يرتد تاريخها عدة قرون ، ولها ملوكها « الكاباكا » يتوارثون العرش ، ولها لغة تسمى « اللوجندا » هى أوسع اللغات انتشارا بالمنطقة وتصدر بها صحيفتان ، ولها وزارة محلية وبرلمان أو مجلس نيابى يسمى « ليكوكو » ويقدر عدد سكانها بنحو ٢ مليون نسمة فى تلك الأيام .

وفى افتتاح دورة « الليكوكو » كانت ترسل لنا دعوة للحضور ضمن عدد محدود من سفراء الدول الصديقة ، وكنا نجلس عدة ساعات نسمع كلمات وخطاب باللغة اللوجندية بغير ترجمة طبعا . بينما البرلمان « الاتحادى »

تستخدم فيه اللغة الرسمية وهى الانجليزية التى يفهمها نحو ٢٥٪ من السكان .

وعندما تقرر انتخاب الكاباكا موتيسا الثانى أول رئيس لأوغندا فى أكتوبر ١٩٦٢ جمع فى شخصه الولاء القبلى لمملكته التى يرث عرشها عن آبائه وأجداده من « البانتو » ورئاسته لباقى الممالك فى الغرب والمقاطعات فى الشمال وهم ممن يسمون « النيليين » . ولكن ليس له فيها جذور ولا يحسون نحوه بولاء .

وطوال فترة الوجود البريطانى فى أوغندا احتفظت بريطانيا « لمملكة بوجندا » وملوكها « كاباكا » بنوع من الحكم الذاتى . وتقع كمبالا العاصمة فى غرب بوجندا ، وهى أكثر تحضرا من غيرها من الأقاليم ويشتغل أهلها بالزراعة ولا سيما زراعة البن والقطن .

والمرأة فى بوجندا هى التى تقوم بالفلاحة وليس الرجل البوجندى بعكس المناطق والممالك الأخرى فى الغرب حيث يشتغل الرجل برعى الماشية .

والطريف أنه حسب التقاليد والعادات فى بوجندا المرأة لا تأكل الدواجن وإن كانت تقوم بتربيتها ، والسبب فى ذلك هو اعتقادها بأن أكل الدواجن يضعف أنوثتها . ولا يُعرف بالضبط كيف استقر ذلك الاعتقاد فى الأذهان عبر السنين ، وهل هو من قبيل تعليمات طبيب السحر ، أم أن الرجل البوجندى قد أدخل ذلك الاعتقاد فى روعها بحيث ضمن أن زوجته تربى له الدجاج فى المزرعة ، ويتكاثر وهى لا تقربه ، ويضمن أنها لا تأكله من وراء ظهره . والسؤال المطروح هو ما رأى رجال الطب الحديث فى ذلك الاعتقاد .

وأهالى بوجندا شديدو الولاء « للكاباكا » وينتظمهم حزب اسمه « كاباكايكا » أى الكاباكا فقط . وحاول أوبوتى من خلال حزبه ، مؤتمر الشعب الأوغندى ، أن يستقطب أعضاء حزب الكاباكا بغير جدوى . واستمرت المصادمات الحزبية فى ربيع عام ١٩٦٦ حيث قام أوبوتى بالقبض على المعارضين لسياسته ، وأعلن نفسه رئيسا تنفيذيا بحجة أن الكاباكا طلب مساعدة المندوب السامى البريطانى ! وأصدر دستورا جديدا فى ١٥ ابريل ١٩٦٦ ألغى الصفة شبه الفيدرالية التى تقررت فى دستور الاستقلال لبعض

الممالك . ورد « اليكوكو » على تلك الخطوة بأن طالب الحكومة المركزية بمغادرة بوجندا وطردها من كمبالا فى موعد اقصاه ٣٠ مايو ! ومن هنا وقبل انتهاء المهلة وقع الهجوم العسكرى الذى اشرنا إليه .

وفى عام ١٩٦٧ الغى أوبوتى ليس فقط مملكة بوجندا وحكومتها ، بل وجميع الممالك التقليدية الأخرى وجعلها جميعا مجرد مقاطعات تتبع الحكومة المركزية .

وقد أضفت تلك الخطوات نوعا من التوتر والقلق السياسى على الجو العام ، وتردت الأوضاع الأمنية فى بوجندا بصفة عامة . وأصبح الرئيس أوبوتى يعتمد أكثر وأكثر على القوات المسلحة الأوغندية بقيادة عيدى أمين . وأصبح واضحا أنه يخطو بسرعة نحو الديكتاتورية وحكم الفرد تسانده قواته الخاصة بعد أن تآكل التأييد الشعبى له حتى من بين أنصار حزبه أنفسهم .

وقد غادرت أوغندا فى تلك الفترة فى صيف ١٩٦٨ منقولا لاحدى دول الشمال ـ وكنت قد سمعت أخبار نقلى أثناء وجودى فى « بوجمبورا » عاصمة بوروندى حيث كنت سفيرا معتمدا لديها .

ونشرت صحيفة « الارجس » المحررة بالانجليزية عنوانا كبيرا « بركات مهمة فنلندية » Barakat Finish Job وقال لى صديقى المندوب السامى البريطانى بكمبالا انهم أخطأوا فى هجاء كلمة Finish بمعنى انهى إذ كان ينبغى أن تكتب Finnish أى فنلندية .

كنت فى هلسنكى عندما قرأت فى الصحف نبأ وفاة الكاباكا موتيسا فى ٢١ نوفمبر ١٩٦٩ بعد أن اشتدت به الفاقة والمرض فى لندن واعتلت صحته حتى وافاه الأجل المحتوم . وقد نقل عيدى أمين الذى استولى على الحكم بعد ذلك رفات الكاباكا إلى بوجندا حيث دفن بالمقبرة الملكية فى كمبالا مع أجداده .

حاشـــية

بعد أن غادرت أوغندا فى أغسطس ١٩٦٨ أصبح اعتماد الرئيس أوبوتى بالدرجة الأولى على القوات المسلحة وقوات الأمن الخاصة . وفى يناير ١٩٧١ أثناء غياب أوبوتى لحضور مؤتمر الكمنولث فى سنغافورة قام الجنرال عيدى أمين قائد القوات المسلحة بالاستيلاء على السلطة وأعلن نفسه رئيسا لأوغندا . وأنهى بذلك تسع سنوات من حكم أوبوتى الفعلى .

وأسلوب الانقلابات العسكرية أصبح نموذجا متكررا للانقضاض على السلطة والاستيلاء على الحكم فى أفريقيا بحيث أصبحت ١٩ دولة من بين ٤٠ دولة أفريقية سوداء يحكمها الجيش فى الوقت الحاضر .

وقد استمر عيدى أمين فى الحكم بدوره لمدة تسع سنوات كان أبرز ما فيها طرد الجالية الآسيوية التى كانت تحتل مركزا قويا فى اقتصاديات وتجارة البلاد عام ١٩٧٢ ، والغاء المؤسسات الدستورية ، وانتفاء الديمقراطية .

وبمناسبة الاشارة إلى طرد الآسيويين ، أود أن أروى قصة طريفة حدثت لنا . ففى أوغندا ـ كما فى العديد من الدول الأفريقية ـ توجد جالية أجنبية نشطة تساهم بقدر وافر فى التجارة ، وتملك عددا من المؤسسات كالفنادق والمطاعم والأسواق (السوبرماركت) والبنوك والشركات وبعض المزارع الشاسعة كقصب السكر والشاى .

وغالبية هذه الجالية من الهنود ـ بما فيهم طائفة السيخ المعروفين بكفاءتهم فى الحرف والصناعات الدقيقة كالميكانيكا والكهرباء ـ والباكستانيين وخاصة الطائفة الاسماعيلية من اتباع الأغاخان ويقدر عددهم بنحو خمسين الفا .

وأذكر أن صاحب فندق من أكبر فنادق كمبالا ، وهو من مقاطعة « جوا » بالهند ومن أكفأ رجال الأعمال الأغنياء دعانى وزوجتى وسفير الهند وحرمه على العشاء بفندقه . وطبيعى أن حضر كبير الطهاة وقدم أفخر ما لديه من

مأكولات ولا يكاد صاحب العمل يطلب شيئا خارج قائمة الطعام حتى يأتينا .

وعندما جاء دور الحلو طلبنا نوع « كريب سوزيت » crepe suzette وهى فطيرة رقيقة مطوية محلاة بالعسل وتقدم على صحاف مشتعلة بالبراندى . وانحنى « الشيف » سعيدا بالطلب واختفى . وطال بنا الوقت ونحن مازلنا ننتظر حتى كدنا ننصرف ، وأخيرا جاء « الشيف » مبتسما ومعه الطبق الموعود وقد نفذ رغبات رب العمل وإذا به حبات من العنب منثورة على الطبق مشتعلة !

ودهشنا فى البداية ثم انفجرنا بالضحك وسألناه عما حدث فاتضح أنه سمع اننا طلبنا Grape Suzette فأرسل معاونيه يجوبون المدينة فى هذه الساعة المتأخرة حتى يحصلوا على العنب وطهاة على طريقة فطيرة الـ suzette ! المهم أن طلب صاحب العمل لابد أن يجاب .

وقد هنأنا الطباخ الأول على ابتكاره وأتينا على الحلو ، وكانت هذه أول مرة نأكل فيها العنب على هذه الطريقة المشتعلة .

بعد سرد هذه الواقعة نعود لحديثنا عن لعبة السياسة والانقلابات . فعندما تولى الرئيس عيدى أمين الحكم عام ١٩٧١ قرر بعدها طرد هذه الجالية الهندية الباكستانية حتى يعطى الفرصة للمواطنين الأوغنديين لكى يتملكوا المتاجر ، ويشاركوا فى الحرف والصناعات والتنمية الاقتصادية بصفة عامة .

وكانت النتيجة أن قام بترحيل عدة آلاف من هؤلاء الآسيويين إلى بريطانيا باعتبار انهم ينتمون بجنسيتهم للكمنولث البريطانى . ولا شك أن هذا الطرد الجماعى كان من نتيجته أن سبب مشكلة لبريطانيا من حيث استيطانهم وشكل صعوبة أكبر على المدى الطويل . فهم رغم انهم أقلية عاملة دءوب إلا انهم يكونون مجتمعا خاصا بهم لهم تقاليدهم وطقوسهم الدينية ، ولا يمكن عرقيا ادماجهم فى الشعب البريطانى .

وكما يعلم القارىء من متابعته للعبة السياسة والانقلابات العسكرية فى أفريقيا أن المعارضة الأوغندية استعانت بالقوات المسلحة التنزانية فى محاولة للقضاء على حكم عيدى أمين . وقد نجحت فعلا فى احتلال كمبالا عام ١٩٧٩ ،

وبعد فشل حكومتين مدنيتين عاد أوبوتى إلى الحكم مرة أخرى فى ديسمبر ١٩٨٠ بانتخابات عامة حصل فيها حزبه على أغلبية ضئيلة .

وهكذا أعطى أوبوتى فرصة ثانية لحكم أوغندا ، لعله تلقن الدرس ووعاه خلال اقصائه عن السلطة لفترة امتدت تسع سنوات .

ولكن بعد حوالى أربع سنوات من التجربة الثانية وقع فى يونية عام ١٩٨٥ انقلاب عسكرى أطاح بالرئيس أوبوتى ، وأعلن تنصيب الجنرال تيتو أوكيللو رئيسا للبلاد . وفى نفس الوقت كانت حركة المقاومة السرية ضد أوبوتى تقوم بعملياتها فى الشمال منذ عام ١٩٨١ بقيادة وزير دفاعه السابق يويرى موسيفينى .

ويبدو أن أوبوتى قد فشل فى تقليص المؤسسة العسكرية وإنعاش الأوضاع الاقتصادية ، وزادت حالة الفوضى والارهاب فى عهده مما عجل بالانقلاب العسكرى ضده . وقد هرب أوبوتى وبعض أنصاره إلى كينيا ومنها إلى زامبيا حيث طلبوا اللجوء السياسى ومنحوا إياه لاعتبارات إنسانية .

وكالعادة فى مثل هذه الانقلابات يقول قادة الانقلاب أن الحكم العسكرى فى أوغندا لن يطول ، وأن العودة للديمقراطية ستكون بأسرع ما يمكن بقدر ما تسمح به الظروف .

طبعا التصريحات والأمانى شىء ، والواقع شىء آخر . فرغم فرار أوبوتى استمرت الحرب الأهلية مستعرة بين قوات الحكومة التى يمثلها المجلس العسكرى الحاكم وبين جيش المقاومة الوطنى عدة شهور ، وتردت الأوضاع الأمنية فى البلاد وانهارت السلطة المدنية ، وانتشرت الجيوش الخاصة فى الشوارع وانقطعت امدادات الغذاء وتعطل التعليم .

وأخيرا توصل الطرفان إلى اتفاق فى نيروبى فى ديسمبر ١٩٨٥ ووقعت معاهدة سلام بين المجلس العسكرى الحاكم ويمثله اوكيللو وجيش المقاومة الوطنى ويمثله موسيفينى بحضور الرئيس الكينى دانيل اراب موى الذى لعب دورا هاما فى التوصل إلى ذلك الاتفاق . وينص على وقف الحرب الأهلية وتقسيم السلطة بين الطرفين ، والدعوة لعقد مؤتمر قومى للأحزاب والجماعات

المسلحة تمهيدا للدعوة إلى إجراء انتخابات عامة ، والاستعانة بقوة من دول الكومنولث (٧٠٠ شخص) للاشراف على تدريب جيش أوغندى جديد .

وكان المأمول أن تكون هذه الاتفاقية هى بداية الطريق نحو الاستقرار وتهدئة الصراعات واستتباب الأمن والسلام .

ولكن الذى حدث أن استمر الصراع المسلح على السلطة ، وأخيرا اطبقت قوات الثوار على كمبالا واستشرى السلب والنهب والقتل ، ورجحت كفة الثوار وهربت فلول قوات الحكومة ، وأعلن تنصيب موسيفينى رئيسا لأوغندا خلفا لأوكيللو فى ٣٠ يناير ١٩٨٦ وبُدء بتشكيل الحكومة مع الوعد التقليدى بإنهاء الحكم العسكرى فى أقرب فرصة وعودة الديمقراطية .

بقى أن نرى ما سوف يسفر عنه المستقبل مثله مثل باقى الانقلابات العسكرية فى القارة الأفريقية .

ولابد لى هنا من كلمة ، وهى أنه بعد نحو ربع قرن من تحقيق الاستقلال السياسى لمعظم دول أفريقيا السوداء مازالت أبعد ما تكون عن الاستقرار السياسى . وقد وقع فيها ستون انقلابا بواقع انقلاب كل خمسة شهور . ولن يكون الانقلاب فى أوغندا آخر الانقلابات . . هذا بخلاف العديد من الانقلابات الفاشلة التى لم تر النور .

وما نشاهده اليوم فى كثير من الدول الأفريقية من فقر مدقع ومجاعة مهلكة ليس مرجعه وحده الجفاف أو التصحر . إن آفة أفريقيا الحقيقية هى أسلوب الحكم .

حاولت كثير من الدول الأفريقية أن تأخذ بالنظام الديمقراطى الغربى بالكامل مع وجود معارضة يمكنها أن تفوز بالسلطة فى انتخابات حرة . ولكن لم يؤخذ بهذا النظام فى التطبيق العملى . وفى الدول التى مازال فيها الحكم المدنى قائما يهيمن عادة على السلطة حزب واحد بحجة الوحدة الوطنية . مؤسسة فى معظم الأحوال رئيس يتولى السلطة مدى الحياة ، ولا سبيل إلى تنحيته إلا بوفاته ، أو بانقلاب عسكرى !

هناك بطبيعة الحال نماذج استثنائية نادرة لهذه القاعدة مثل تنازل

ليوبولد سنجور فى السنغال وجوليوس نيريرى فى تنزانيا - وليست الديمقراطية الغربية بحذافيرها هى بالضرورة الحل الأمثل لنظام الحكم فى الدول الأفريقية ، لأن المشكلة ربما تكون مواجهة الفقر والمجاعة والأزمة الاقتصادية بالدرجة الأولى . ولكن لابد من الديمقراطية كأسلوب حكم مع تطويرها بما يناسب الظروف المحلية لكل بلد بغير إهدار لقيمها ومفهومها ومضامينها .

ففى أوغندا على سبيل المثال الانتماء القبلى أقوى بكثير من الانتماء القومى . و « شعب بوجندا » حريص على مقوماته وحكمه الذاتى أكثر من اندماجه فى وحدة الدولة الأوغندية - ولا يمكن القضاء على القبلية المتوارثة عبر الأجيال فى بضع سنين كما حاول أوبوتى - وذلك فى غياب التعليم والوعى السياسى فضلا عن محاولة فرض هيمنة قبيلته على الباقين . وهذا لا يعنى تعميق القبلية والانفصالية وإنما ينبغى السير فى اتجاه التقريب ولكن بتؤده وخطوات ثابتة وقبل كل شىء بأمانة وتجرد وإخلاص من أجل المصلحة الوطنية الكبرى لا من أجل الحزبية والمنفعة الشخصية .

أما أسلوب الديكتاتوريات والقهر والبطش وإهدار حقوق الانسان وتزوير الانتخابات وتلفيق الاستفتاءات والاعتماد على القوات المسلحة كمصدر القوة للرئيس فإنه يمهد السبيل لتولى العسكريين الحكم بأنفسهم . وهكذا تدور أمور السياسة فى أفريقيا فى حلقة مفرغة يكون ضحيتها الشعوب فى فقرها ومجاعتها وتخلفها .

ولو أن ونستون تشرشل قام من قبره وشهد ما جرى ويجرى فى أوغندا لتحسر على ما تردت إليه أوضاعها بحيث لم تعد « درة أفريقيا » بل ربما أقرب ما تكون إلى « جوهرة فى الوحل » .

* * *

الفصل الثالث

ثلاجة الشمال

الأقدميـــــة

فى ضحى يوم من أيام أكتوبر ١٩٦٨ وصلت إلى مطار هلسنكى قادما من كمبالا من وسط أفريقيا مرورا بالقاهرة لتولى مهام منصبى سفيرا لمصر فى فنلندا . .

وكان فى انتظارى بالمطار وفقا للتقاليد الدبلوماسية مدير إدارة المراسم بوزارة الخارجية الفنلندية وزملائى أعضاء السفارة المصرية ، فاستقبلنى الجميع بالترحاب . وأنهيت الاجراءات ونزلت حقائبى ولم يمض سوى وقت قصير حتى كنت أجلس فى السيارة الفارهة التى أعدتها إدارة المراسم ومعى مديرها فى طريقنا إلى دار السكن .

هل سبقت لك الخدمة فى هذه المنطقة ؟ وكان ردى على مرافقى بالسلب .

هل سبق لك زيارة هذه البلاد ؟ وكان ردى أيضا بالسلب . فلم يسبق لى زيارة دول شمال أوربا .

وعندما لاحظت أن إجاباتى كلها بالسلب مما قد يستشف منه جهلى بالمنطقة أردفت ببعض العبارات توضح أننى مستذكر لدروسى ، فقلت إننى سعيد بالحضور إلى تلك البلاد الجميلة بطبيعتها وبسكانها والغنية ببحيراتها التى تتجاوز ٣٠ ألف بحيرة ! وأننى بعد أن أمضيت نحو خمس سنوات على خط الاستواء أتطلع بشغف شديد إلى التعرف على تلك المنطقة وزيارة المنطقة القطبية الشمالية !

وأخذت السيارة تدلف بنا من المطار إلى العاصمة هلسنكى ووراءنا رتل من سيارات أعضاء السفارة ، وسرحت ببصرى إلى الخارج فوجدت مسحة الشتاء المبكر قد حلت ، وقد اصفرت أوراق أشجار البتولا ، وانتظمت بجذوعها البيضاء فى صفوف متراصة مستوية ، وتناثرت المنازل والمساكن بحدائقها على طول الطريق فى سكون بديع . . وكانت السحب الداكنة تغلف السماء والشمس تنجح من وقت لآخر فى أن تفلت منها فتضفى على الجو نورا وبهاء وشعورا بالدفء .

وصلنا إلى دار السكن وصعدنا إلى الطابق العلوى وانضم إلينا أعضاء السفارة ، وبعد تناول المشروبات والقهوة ، سألت مدير المراسم عن موعد تقديم صورة أوراق الاعتماد لوزير الخارجية والموعد المرتقب لتقديمها لفخامة رئيس الدولة ، فأجابني بأنه سوف يتصل بي في الغد ، واستأذن في الانصراف لأنه سيتوجه لتوه مرة ثانية إلى المطار لاستقبال سفير الهند الجديد .

لم يمض أكثر من عشرة أيام حتى كنت قد قدمت أوراق اعتمادى للرئيس الفنلندى « أرهو كيكونين » بالقصر الجمهورى فى الساعة العاشرة من صباح يوم جمعة . . وكان لقاء وديا رائعا اتسم بالفخامة فى الاستقبال ، واستعراض لحرس الشرف فى فناء القصر حيث صدحت الموسيقى النشيد الوطنى لكل من مصر وفنلندا ثم أجريت الحديث مع فخامة الرئيس دون حاجة لالقاء خطب ، أو كلمات معدة مطولة ، وذلك وفقا للتقاليد المتبعة لديهم .

ودامت مراسم الاحتفال نحو نصف ساعة انصرفت على إثرها لأنى علمت أن فخامة الرئيس الفنلندى سوف يستقبل بعدى عددا من السفراء .

وما هى إلا أسابيع حتى تلقيت دعوة لحضور حفل يقام ظهرا بالقصر الجمهورى احتفاء برئيس وزراء إحدى الدول الصديقة المجاورة لفنلندا الذى يزورها زيارة رسمية ، وقد جرت العادة على أن يقدم إلى الضيف الكبير السفراء المعتمدين بهلسنكى .

تصفحت القائمة الدبلوماسية التى تصدرها إدارة المراسم بوزارة الخارجية ـ مرة كل ستة شهور ـ فاكتشفت أن آخر سفير قدم أوراق اعتماده قبلى ـ خلال شهر سبتمبر ـ هو سفير إسرائيل وهذا يعنى أننا إذا وقفنا صفا فى ذلك الاحتفال وقفنا إلى جانب بعضنا البعض .

وتذكرت على الفور أن الرئيس عبد الناصر عزل نائب وزير الخارجية لتصريح حول إسرائيل ، وتوقعت أن الصحف سوف تنشر صورنا الفوتوغرافية ونحن نتحدث فى صفحاتها الأولى مما يكون له مردود سىء فى القاهرة ولذلك قررت تفادى هذا المأزق عملا بالمثل القائل : « الباب اللى يجى منه الريح سده واستريح » .

تحدثت مع مدير المراسم وشرحت له وضعنا بالنسبة لاسرائيل وأنه

ليس فقط أنه لا يوجد اعتراف بها ولا علاقات دبلوماسية معها بل أكثر من ذلك أنها تحتل أراضى ثلاث دول عربية من بينها مصر .

وطلبت منه تفاديا للحرج ألا أقف جنبا إلى جنب مع سفير إسرائيل فى حفل الاستقبال المقام لرئيس الوزراء الضيف ، وأن ذلك ليس فيه أى اعتبار شخصى ، وأنه لن يعدم الوسيلة لتحقيق تلك الرغبة البسيطة .

وقد شعرت من رد مدير المراسم أن هذا الترتيب البروتوكولى تفرضه اقدمية السفراء ، وأنه لا سبيل له إلى التصرف ، بل علق على طلبى بأنه لعل هذا التجاور المرتقب بينى وبين سفير إسرائيل يكون بادرة طيبة لدور تقوم به دولة صديقة للطرفين ـ يعنى فنلندا !

واتجه فكرى إلى وجهة أخرى ـ قابلت زميلى سفير الهند وكان صديقا كريما ودبلوماسيا كفؤا . وقلت له أننى متنازل عن أقدميتى بحيث يقف قبلى فى المناسبات الرسمية ، فنحن قدمنا أوراق اعتمادنا فى نفس اليوم ، وكل ما فى الأمر أننى أسبقه بنصف ساعة فقط . فوافق على الفور وسر لذلك سرورا شديدا .

وفى يوم استقبال الرئيس الضيف وقفنا صفا طويلا ، أكثر من ستين سفيرا معتمدا حسب الأقدمية ، وأفهمت مدير المراسم أننى بادلت أقدميتى مع سفير الهند ، ولاحظ سفير إسرائيل بذكائه بأن الذى يقف بجواره سفير الهند ، وأصبح بين مصر وإسرائيل شبه القارة الهندية بأسرها . . وفهم سفير الهند سر التغيير وابتسم .

كان هذا عام ١٩٦٩ ، وهو ما يكشف عن عمق التغيير فى « الخط الرسمى » الذى تبناه الرئيس السادات تجاه إسرائيل ابتداء بزيارة القدس فى نوفمبر ١٩٧٧ وانتهاء بتوقيع اتفاقية السلام معها فى مارس ١٩٧٩ .

وبعد نحو عام ونصف علمت أن سفير إسرائيل قد نقل إلى منصب آخر ، وتلقينا دعوة لحضور حفل افتتاح البرلمان وتوجهنا إلى ذلك الحفل الكبير وأخذ السفراء يأخذون مواقعهم حسب ترتيب أقديمتهم ، وعندئذ قلت لزميلى سفير الهند أن يعود لأقدميته بعدى وعندما اندهش قلت له أن الظروف قد تغيرت . . ففهم وقال : كم ستدفع عن هذه المدة ؟ وابتسمنا نحن الاثنين .

الرياضة الشـــتوية

فى شتاء كل عام تدعو وزارة الخارجية الفنلندية رؤساء البعثات الدبلوماسية المعتمدة فى هلسنكى وكبار معاونيهم وعائلاتهم لمشاهدة مسابقات الانزلاق على الجليد فى مدينة « لاهتى » فى غرب فنلندا ، وتخصص لهم قطارا يستغرق نحو ساعتين فى كل من الذهاب والعودة .

والواقع أن الشعب الفنلندى مثل باقى شعوب الشمال رياضى بطبيعته ، فتراهم رغم قسوة الشتاء وطوله ـ أو ربما بسببها ـ يمارسون رياضات العدو والمشى والتزحلق على الجليد فى الهواء الطلق والتنس والاسكواش فى الملاعب المغطاة والسباحة فى البحر صيفا وفى حمامات السباحة المغطاة والمدفأة طوال العام . وكان رئيسهم آنذاك « ارهو كيكونين » وقد جاوز السبعين عاما بطلا من أبطال الرياضة فى صباه وظل يمارس الرياضة حتى فى سنه المتقدمة .

ركبت وزوجتى والأولاد « قطار الرياضة » وتجمعنا مع أصدقائنا من السفراء الآخرين وعائلاتهم . وكان رجال المراسم من الخارجية الفنلندية يرحبون بضيوفهم من السلك السياسى وقد زودوا المقاعد بالمشروبات والفطائر والمرطبات .

توجهنا عند وصولنا إلى « لاهتى » إلى ساحة مكشوفة صفت فيها مقاعد خشبية . جلسنا نتطلع إلى المتسابقين وقد أعدت لهم منصة عالية يقفزون منها على منحدر يكسوه الجليد فيطيرون فى الهواء فى توازن رائع حتى يسقطون بزحافاتهم على الجليد . ويحدد الحكام نقطة التماس هذه لكى يقارنوا بين أداء المتسابقين ، ويحددوا الفائزين الأوائل منهم .

وعلى الجانب الآخر جلس آلاف المتفرجين من أبناء الشعب الذين توافدوا لشهود تلك المناسبة الرياضية السنوية الكبرى .

كان الجو شديد البرودة حول درجة الصفر ، أو أقل قليلا ، ولكنه كان محتملا ، وكنا نجلس لابسين المعاطف الثقيلة والقبعات المتدلية حول الآذان والكوفيات والقفازات ، وكانت زوجتى تضع على رأسها قبعة من الفراء السميك

وتتدثر بشال كبير أبيض من الصوف فوق المعطف ، كما نلقى البطاطين على أرجلنا التى لا نكاد نحس بها من شدة البرد . ولكن المشاهد الرائعة والقفزات المذهلة التى تأخذ بالألباب تصرف الأذهان عن الاحساس ببرودة الجو . ولاحظت أن بعض السفراء من العارفين الذين خاضوا التجربة من قبل ذلك قد احضروا معهم وسائل تدفئة أخرى .

وجاء مصورو الصحف والمجلات يأخذون صورا تذكارية لأعضاء السلك الدبلوماسى ولا سيما الذين يبدون غرباء من الشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية ، ويسألونهم عن انطباعاتهم عن تلك الرياضة العنيفة التى تحتاج إلى تدريب شاق ولا تخلو من مغامرة .

وكان الرئيس الفنلندى يجلس فى المقصورة ونحن إلى جواره نتابع الدورة حتى ينتهى السباق ويوزع الكأس والجوائز على الفائزين .

وفجأة جاءنا مندوبو المراسم ودعونا لتناول طعام الغداء فى نادى بلدية المدينة ، فكان ذلك إنقاذا لنا من الجلوس فى البرد القارس ، وتوجهنا إلى المطعم حيث الدفء والأكل والشراب .

كان يوما ممتعا رائعا اندمجت فيه الأسرة الدبلوماسية ورجال إدارة المراسم بأدبهم وكرمهم ، وشاهدنا كيف تنهض الشعوب بالرياضة فالعقل السليم فى الجسم السليم .

وتذكرنا أثناء جلوسنا فى قطار العودة أن زوجتى قد نسيت الشال فى مكان ما ، وقالت لزميلاتها ها هو الشال الذى كنتم تحسدوننى عليه قد فقد . وضحكنا جميعا على أن الخسارة جاءت فى الشال ، وليست القبعة الفرو الغالية مثلا . . وانتهى الأمر .

وبعد بضعة أيام جاءنا بريد السفارة وبه طرد محلى وعندما فتحته السكرتيرة كانت المفاجأة . فقد عاد الشال . ولكن كيف عاد ؟ كان معه كتاب باللغة الفنلندية اتضح من ترجمته أن سيدة من أبناء البلدة من المتفرجين وجدت الشال . وفى اليوم التالى نشرت الصحف صور شخصيات السلك الدبلوماسى من الضيوف فلاحظت السيدة الذكية أن الشال ترتديه حرم السفير

المصرى فبعثت به إلى السفارة المصرية فى هلسنكى .

مستوى عال من الأمانة يتمتع به الشعب الفنلندى بشكل مذهل . وكانوا يندهشون عندما وصلت من أوغندا وأقوم بإحكام قفل سيارتى الخاصة عندما أنزل منها خشية سرقتها ! وأنا لا أقول هذا لاعادة الشال ، وإنما هذه الحادثة ثبتت اقتناعى فى ارتفاع مستوى الصدق والأمانة لدى الفنلنديين ، ذلك الشعب الصغير الذى لا يزيد عدد سكانه آنذاك ـ أى عام ١٩٧٠ ـ على ستة ملايين ـ وأرجو أن يظل محافظا على قيمه ومثله .

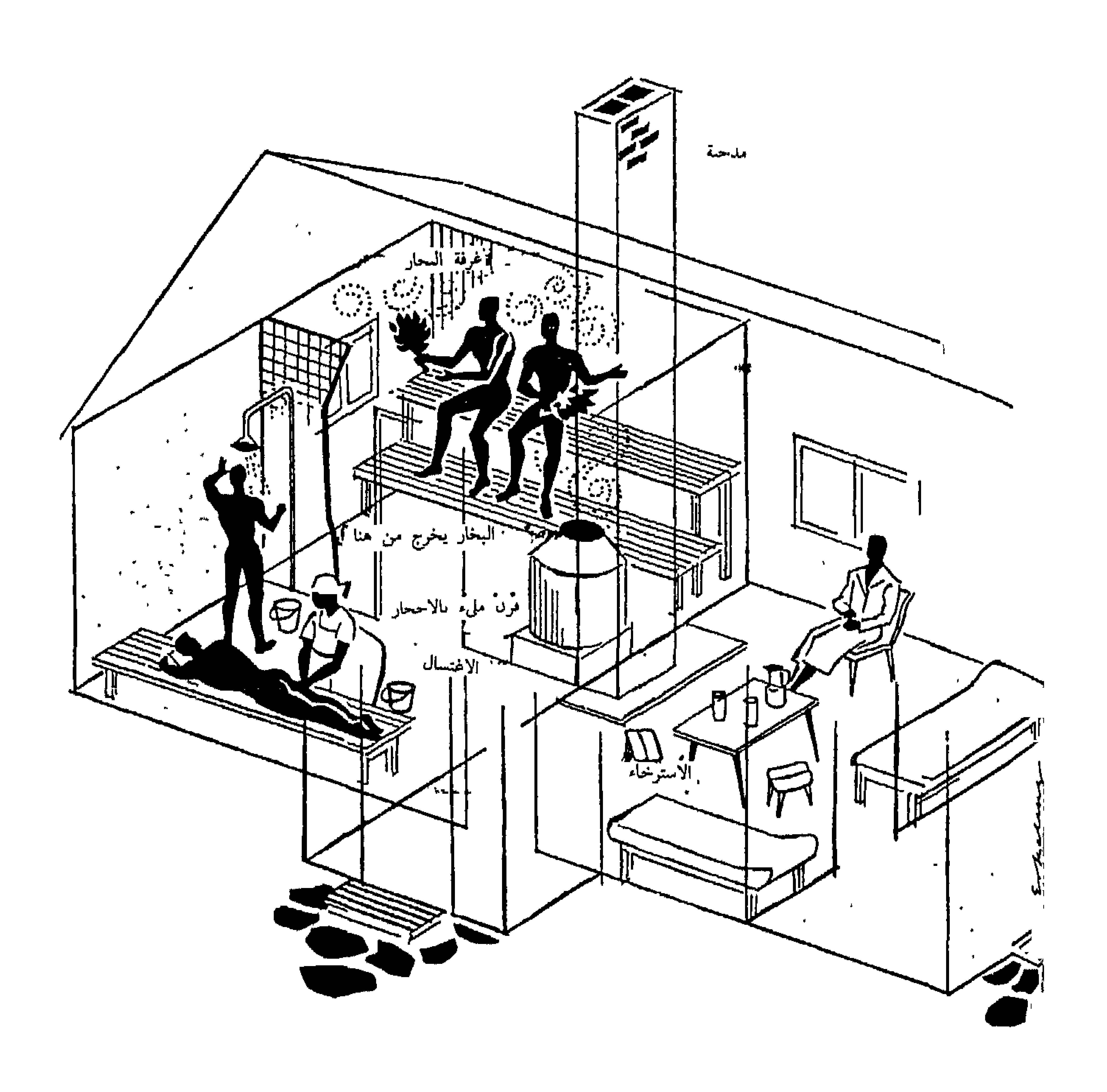
وقد سألنى البعض ماذا فعلتم للسيدة التى أرسلت الشال . والرد أن أرسلنا لها بعض الهدايا من الحلى الفرعونية رغم أننا نعلم أنها لم تكن تنتظر شيئا ـ فهل تدلونى على بلد فى وقتنا هذا يمكن أن يحدث فيه مثل هذا الأمر ؟

السـونا الفنلندية

كنت قد سمعت كثيرا عن « السونا » الفنلندية ولكن لم تكن قد تهيأت لى فرصة تجربتها . وها أنذا فى هلسنكى أجد السونا فى كل مكان . إنها فى الواقع مؤسسة قومية .

فجميع الفنادق مزودة بحمامات « السونا » ولا يخلو منزل فنلندى ريفى فى الغابات ، على البحيرات ، أو على ساحل بحر البلطيق أو فى الجزر المتناثرة على طول ذلك الساحل من كابينة « السونا » . ولا تخلو الأحياء من حمامات السباحة المدفأة المغطاة الملحق بها عدد كبير من حمامات « السونا » أحدهما مخصص للرجال والآخر مخصص للنساء .

وقد تطورت « السونا » فبعد أن كانت المواقد التى تغذى غرفة البخار توقد بالخشب أصبحت تشعل بالكهرباء ويوضع فوقها أحجار خاصة تساعد على رفع درجة الحررة فى الغرفة . ومازالت تلك « السونا » القديمة موجودة ببعض المناطق بالريف ويخرج منها الشخص مغلفا بالسواد من هباب الأخشاب من جذوع الأشجار وتسمى السونا السوداء ، وما زال البعض فى فنلندا يقول أنها أصح من « السونا » ذات الموقد الكهربائى .



GENERAL LAYOUT OF THE SAUNA OF THE FINNISH CABLE WORKS

رسم تخطيطى للساونا الفنلندية

وترتفع درجة الحرارة فى غرفة « السونا » إلى نحو مائة درجة . ويجلس المستحمون فى صمت فوق مقاعد خشبية لبضعة دقائق ثم ينصرفون لأخذ دش ، والسباحة فى حمام السباحة أو البحر أو البحيرة بحسب الأحوال ، ثم يعودون مرة أخرى إلى غرفة البخار ، ثم إلى الماء البارد وهكذا مرتان ، أو ثلاث على الأكثر ، ثم يجلسون فى استرخاء لبعض الوقت ويتناولون بعض المشروبات الخفيفة أو البيرة . وإذا كانت « السونا » فى نادى خاص أو فندق ، فبعد الدش ، أو السباحة يغتسلون ، ويوجد متخصصون فى التدليك من الجنسين .

وأذكر أننى ذهبت مرة مع صديق لى سفير إحدى الدول الآسيوية إلى « السونا » فى حمام السباحة القريب من مكاتب السفارة ، ودخلنا غرفة البخار وجلس إلى جوارى يتحدث طوال الوقت بصوت مرتفع على خلاف المألوف ، وكنت أستمع إليه صامتا ، فما كان من أحد الحاضرين إلا أن أخذ يصب ماءا على الأحجار الموضوعة فوق الموقد ، فاشتدت درجة الحرارة فى الغرفة وتجاوزت المائة درجة ، ولم يحتمل صديقى شدة الحرارة ، واستأذن فى الانصراف مهرولا من الغرفة على عجل .

وغرفة « السونا » الحرارة فيها جافة ، وليست كالحمام التركى ملىء ببخار الماء ـ وقد اكتشفنا بعد أن اعتدنا على « السونا » أنه ليس صحيا المبالغة فى البقاء فى غرفة البخار الشديدة الحرارة مدة تزيد على بضع دقائق ـ ثلاث دقائق مثلا ـ ثم الخروج وذلك على عكس الحمام التركى ـ وهناك خطأ شائع يقع فيه الغرباء ، وهو أنهم يظنون أنه من المفيد صحيا المكوث داخل غرفة البخار أطول مدة ممكنة كدليل على قوة الاحتمال .

و « السونا » فى فنلندا هى صناعة متقدمة ، فهناك عشرات النماذج من غرف « السونا » الخشبية المجهزة للتجميع والمواقد الكهربائية ـ وهناك شركات متخصصة فى تصدير « السونا » للخارج حيث اشتد عليها الاقبال فى ألمانيا الغربية وكندا والولايات المتحدة الأمريكية . والفنلنديون ذوو خبرة تكنولوجية فى توصيلاتها الكهربائية وتصريف المياه خاصة بالنسبة لحمامات السباحة التى تقام بالطوابق العليا من الفنادق والمؤسسات .

ولا شك أن للسونا فضلا عن النظافة فوائد صحية . فهى تفيد فى علاج

بعض أمراض المعدة والبرد ، كما تساعد ـ بتنقل الشخص بين الحرارة الشديدة والماء البارد ـ على تنشيط الدورة الدموية كما أن لعملية التدليك فوائدها لعضلات الجسم وفقراته .

وللسونا الفنلندية طقوسها . فاذكر أننى ـ وكنت حديث العهد فى هلسنكى ـ ذهبت للمنزل الريفى لبعض الأصدقاء وكانت السونا على مشارف بحيرة صغيرة يحيط بها عدد من المساكن بين الأشجار والأعشاب كلوحة طبيعية تأخذ بالألباب . . كنت أسبح بالبحيرة قرب « السونا » عندما سمعت ضربا داخل غرفة بخار « السونا » . فأثار دهشتى أن يكون عراكا قد نشب . فخرجت من الماء وسارعت بالدخول فوجدت أحد الضيوف الفنلنديين يضرب نفسه ضربا مبرحا بحزمة من فروع أشجار « البتول » بأوراقها الخضراء الزاهية ذات الرائحة الهادئة المميزة . وقد تعلمت أن هذا من تقاليد « السونا » عندهم حيث أن هذا الضرب على أجزاء الجسم يساعد على تنشيط الأوعية الدموية والاسترخاء بعد ذلك .

ومن أمتع وأحدث نماذج « السونا » تلك المقامة فى فندق « كالاستاتوربا » ، وهو من فنادق الضيافة الرسمية ، ومقام فى أجمل ضواحى هلسنكى . وغرف الاستجمام بعد « السونا » تطل على خور من بحر البلطيق فى جمال لا نهائى آخاذ ، وبه حمام سباحة مغطى فى الدور الأرضى بجوار غرف « السونا » ، وكان مكانى المفضل لممارسة « السونا » لقربه من السفارة .

وعندما ذهبت إليه أول مرة ومعى سفير صديق لى من دولة أمريكية لاتينية انتهينا من « السونا » وخرجنا من حمام السباحة ، وتوجهنا إلى غرف الغسيل وهى غرف مستقلة ، ودخلنا بالمايوه وفى كل غرفة سيدة كبيرة فى السن مفتولة العضلات ترتدى زيا كالممرضات ، فأشارت بيدها ولم أفهم ما تعنيه ، واتضح أنها لا تتكلم أية لغة سوى الفنلندية ، ثم فهمت من الاشارات أنه لابد من الناحية الصحية لغسيل الجسم بالصابون والليف من خلع المايوه .

وبعد انتهاء الغسيل سكبت على المشرفة عدة دلاء من الماء وارتديت المايوه ، وتوجهت إلى غرفة التدليك استكمالا للتداوى . فوجدت القائمة بالتدليك شابة جميلة فى مقتبل العمر . ورأيت تفاديا من الحرج الذى حدث مع

المشرفة على الغسيل وعدم الماهن بلغات أجنبية أن أبادر إلى خلع المايوه قبل الاستلقاء على سرير التدليك . وما أن شرعت فى ذلك حتى صرخت الممرضة الحسناء ، وقالت لى باللغة الانجليزية أنه لا حاجة بى لخلع المايوه ، وأن التدليك يتم وأنا محتفظ به ـ وطبعا احمر وجهى خجلا ، وأخذت أشرح لها تجربتى مع المشرفة على غسيل البدن ، وخرجت بعد فترة التدليك وقد بقيت عظامى تئن عدة أيام من أصابعها الرقيقة . ويظهر أنها أعطتنى جرعة زائدة بعض الشىء !

وفى المنزل الصيفى لدى إحدى صديقاتنا ـ أرملة سفير فنلندا فى باريس ـ وكانت « سونيا » سيدة مجتمع من الدرجة الأولى ـ تجمعنا فى « السونا » سفراء يمثلون قارات العالم جميعا فكان هناك سفراء بريطانيا والبرازيل ومصر ورومانيا والهند واليابان ! وعلق أحدنا قائلا ها قد اجتمعت الأمم المتحدة متجردة من مشاكل السياسة الدولية وصراعاتها ـ ماذا لو اجتمع رؤساء الدول فى « السونا » ؟ لعل غسيل النفوس يؤدى إلى إنقاذ البشرية مما يتهددها من حرب نووية .

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر ، فمن المألوف أن يجتمع مجلس الوزراء الفنلندى بعد « السونا » فى قاعات الاستجمام والاسترخاء الملحقة بحمامات « السونا » ، ويقال أن أداءهم وإنجازهم يفوق اجتماعاتهم العادية !

وبعد أن أمضيت نحو أربع سنوات فى فنلندا منحت فى أغسطس ١٩٧٢ شهادة دبلوم عضوية « فرسان حمام الأحجار الساخنة » . وتضمنت الشهادة بيانات مثل احتمال الحرارة والضرب بأوراق « البتولا » وصدمة الماء البارد والافاقة بعد ذلك من الصدمة . وقد وقع الدبلوم صديقنا مستر « وسترلند » الرئيس العام لشركات « نوكيا » أكبر مجموعة شركات صناعية فى فنلندا .

شىء واحد لم أستطعه وهو سونا ثلاجات البحر فى الشتاء ـ فهناك حمامات « سونا » تقام على الشواطىء . فإذا أقدم الشتاء تجمدت المياه إلى جوارها فيقوم الفنلنديون بشق حفرة واسعة فى الجليد يوصلون إليها المياه الساخنة حتى تظل مفتوحة ، وينزلون فيها قادمين من « السونا » فى درجة حرارة منخفضة للغاية تحيط بالحفرة الثلوج من كل جانب بينما درجة حرارة



DIPLOMA

Be it hereby known to all who doubt but seek the truth that on this 7th day of the month of AUGUST in the year 1972

HIS EXCELLENCY
- GAMAL-ELDIN BARAKAT

did without constraint or undue persuasion, be it from the Sprites or from Spirits, undergo the Purgatory of the Finnish Sauna, passing stark naked through all the stages, from the Lowest to the Highest, to attain the Transcendental State, being herewith initiated in the following ancient rites:

Heat endurance	UNBELIEVABLE
Self torture with a birch whip	FANTASTIC
Cold shock in the sea at	10°C
Rigor glacialis in the snow at	–
Return to consciousness	SWIFT

We, the undersigned, who bear witness to the victim's trials and suffering, declare that having given the afore-said proofs of Maturity, Endurance, and Moral and Physical Hardiness,

SIR GAMAL-ELDIN

is now a full member of the illustrious

ORDER OF THE [illegible] HOTSTONE BATH

and we do ordain that he shall enjoy without restraint the innumerable and unprintable privileges of the afore-said Order

Westerlund
Scourge Master

[illegible signature]
Chief Assessor

شهادة دبلوم عضوية « فرسان حمام الأحجار الساخنة »

Chair woman/man of the Bath

الجو نفسه حولهم تحت الصفر . كما أنه من المألوف فى ليالى الشتاء وفى المنازل فى الضواحى وعطلات نهاية الأسبوع ورأس السنة أن يخرجوا من حمام « السونا » للتمرغ فى الجليد بغير أن يصابوا بالانفلونزا أو النزلات الشعبية بل تكسبهم الصدمة صلابة وطول عمر !

الفنلندة

فنلندا اسمها باللغة الفنلندية « سيومى » ومعناها بلاد البحيرات . إذ يناهز عددها ٦٠٠٠٠ بحيرة . وتكسو الغابات أكثر من ثلثى الأرض ، ولذا تشكل الأخشاب أهم الصادرات ، وكذا مشتقاتها من الورق ولب الورق . ومن المناظر المألوفة مشاهدة جذوع الأشجار طافية فوق الأنهار تنقلها تيارات المياه إلى المصانع فى الجنوب .

وفى الشتاء يتجمد بحر البلطيق ، وتبدو هلسنكى ناصعة البياض ، وقد غلفها الجليد متراكما فوق الأسطح وكاسيا الطرقات ومتدليا من الأشجار .

أما الاقليم القطبى الشمالى فيكون جزءا من إقليم « لابلاند » حيث يسكنه قبائل اللاب الرحل اللذين يقومون بتربية قطعان الرنة .

عدد السكان أثناء مدة خدمتى فى أواخر الستينات وأوائل السبعينات كان يبلغ نحو خمسة ملايين ونصف مليون نسمة . يتكلمون اللغة الفنلندية ، ويتكلم سكان المنطقة الغربية ـ توركو العاصمة القديمة وما حولها اللغة السويدية بالاضافة إلى اللغة الفنلندية . وكانت اللغتان قد اعترف بهما كلغة قومية فى دستور عام ١٩١٩ .

والكلمات فى اللغة الفنلندية طويلة بحيث يضطر المتحدث أن يقطع نفسه حتى يستكمل الكلام ، وأذكر أنه فى اللغة الانجليزية كنا نحصى الكلمات التى تزيد عدد حروفها عن ١٥ حرفا ، أما فى اللغة الفنلندية ، فذلك أمر مألوف .

وأقرب اللغات إلى اللغة الفنلندية هى اللغة المجرية . وبالنظر إلى صعوبة اللغة الفنلندية وقلة استخدامها ، فإن الشعب الفنلندى له قدرة على تعلم اللغات ، وغالبية أبناء الشعب يتكلمون أكثر من لغة غير السويدية مثل

الانجليزية والفرنسية والألمانية والروسية ـ وهذا ما جعل حصيلتى فى اللغة الفنلندية بعد خمس سنوات لا تزيد على بضع كلمات !

وقد لفت نظرى أن دول الشمال الخمس : فنلندا ـ السويد ـ النرويج ـ الدانمارك ـ أيسلندا ـ تتكلم خمس لغات مختلفة رغم أن مجموع عدد سكانها آنذاك كان لا يزيد على ٢٨ مليون نسمة ، أى أقل من عدد سكان الشعب المصرى الكريم ! صحيح أن اللغات فيها تقارب ولكنها ليست مجرد لهجات . وطبيعى أن أوسع اللغات الاسكندنافية انتشارا هى اللغة السويدية بحكم أن سكانها أكبر عددا (حوالى ١٠ ملايين) كما أنها كانت محتلة لفنلندا لعدة قرون ، حتى بداية القرن التاسع عشر .
وكان المسئولون الفنلنديون يندهشون عندما يجدوننى أتكلم مع سفير العراق وسفير تونس نفس اللغة ، بينما لا يتكلمون هم مع أقرانهم من دول مجلس الشمال نفس اللغة !

والشعب الفنلندى بروتستنتى ، ولكنه ليس مواظبا على الذهاب للكنيسة أيام الآحاد .

والكثافة السكانية خفيفة بحيث تسافر بالسيارة عشرات الكيلومترات ، وتمر على قرى مكتوبة على الخريطة ، ولكنها على الطبيعة لا تتجاوز بضعة منازل متناثرة على الطريق . ومعظم العمار فى المثلث الواقع بين هلسنكى فى الجنوب « وتامبرى » قليلا إلى الشمال « وتوركو » على الساحل فى الغرب .

وكل عائلة تقريبا حتى متوسطى الحال يملكون منزلا صيفيا على أحد الشواطىء ، أو البحيرات أو فى الجزر .

وهناك جالية مسلمة من أصل تركى يناهز عددها بضع مئات ، وهى جالية ميسورة الحال يُعتقد أنها نزحت إلى فنلندا من مناطق الأورال عند قيام الثورة البلشفية ، ويشتغل غالبية أفرادها فى تجارة الفراء ، ولديهم جمعية يرأسها « آل على » تمتلك بناية كبيرة تؤجر الأدوار الأرضية فيها للمتاجر ، وفى الدور العلوى مسجد يؤمه أعضاء الجمعية لاقامة الشعائر الدينية والاحتفال بالأعياد الاسلامية . ويتكلم أفراد الجالية اللغة الفنلندية ، ويتحدثون كذلك

اللغة التركية ، ولكن يكتبونها بالحروف العربية القديمة ، وليس بالحروف الهجائية الأفرنجية التى استحدثها الرئيس كمال أتاتورك .

والصيف فى فنلندا قصير لا يتجاوز ٧٥ يوما فى السنة ولكنه ممتع . والنهار طويل ، ولذا فإن الزراعة التى يشتغل بها نحو ٧٠٪ من السكان تزرع المحصولات المناسبة خلال هذه المدة وتحصدها بنهايتها ـ كما أن لديهم صناعة متقدمة للألبان ومشتقاتها .

ويحتفل الفنلنديون احتفالا شعبيا بأطول يوم لا تغرب فيه الشمس . فى الأسبوع الأخير من يونية من كل عام ـ فيتوجه سكان هلسنكى إلى جزيرة « سوه سارى » وهى متنزه عام حيث تصدح الموسيقات ، وتقدم الفرق الفنية بعض عروضها المسرحية وتقدم الكافتريات السندوتشات والسجق والبيرة . ويتجمع المحتفلون حول الجزيرة فى مئات من المراكب الصغيرة واللنشات والفلايك . وتظل الشمس ساطعة فى السماء ، حتى إذا اقترب منتصف الليل أشعلوا النار فى أكوام متناثرة من الحطب وجذوع الأشجار وعلا الصياح والغناء . . ومن المألوف أن يسقط بعض المحتفلين من القوارب فى الماء فى غمرة السعادة ونشوة الاحتفال . . ولا يكاد ضوء الشمس يخبو وينتشر الغسق حتى تبدأ تباشير الفجر فى الطلوع بعد منتصف الليل بقليل إيذانا بإشراقة يوم جديد . . ويأخذ المحتفلون فى الاياب إلى منازلهم فى وضح النهار .

ولذا فإن الزائر لتلك البلاد فى ذلك الوقت من السنة لابد ـ لكى يأخذ قسطه من النوم ـ ألا ينتظر حتى تعتم الدنيا لأن الظلمة لن تكون حالكة ، وعليه أن يلتزم بالساعة ، فينام ويصحو فى ضوء الشمس اكتفاء بإسدال الستائر الكثيفة على النوافذ لحجب الضياء ، إذ يمكنه قراءة الصحف فى ضوء الطبيعة قرب منتصف الليل !

ومن مواسمهم التى يحتفلون بها الـ Cray Fish Season وهو نوع خاص من المأكولات البحرية حجمها وسط بين الجمبرى وأبو جلمبو تقدمه الفنادق والمطاعم فى العشاء ، وتتزين كثير من المحلات والأسواق وقاعات الطعام والموائد باللون الأحمر ، وهو سمة ذلك النوع من مأكولات البحر ،

ويقدم فى أطباق خاصة مع الصلصة ، وكسارات مثل كسارات البندق بدلا من السكاكين لكسر الأصداف وأكل ما بداخلها .

* * *

أما عن الناحية السياسية فإذا رجعنا إلى تاريخ فنلندا لوجدنا أن السويديين غزوا فنلندا فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وبقيت من القرن السادس عشر حتى بداية القرن التاسع عشر دوقية سويدية كبرى تتمتع بالحكم الذاتى .

وفى عام ١٨٠٩ استولت عليها روسيا وأصبحت دوقية روسية كبرى حتى حصلت على استقلالها من السوفييت بعد ثورة ١٩١٧ .

ثم قامت حرب أهلية بين مؤيدى الروس (الحمر) والقوميين الفنلنديين (البيض) انتصر فيها القوميون وانتخب أول رئيس للجمهورية عام ١٩١٩ واعترفت روسيا باستقلال فنلندا عام ١٩٢٠ .

وقد شهدت فترة الحرب العالمية الثانية هجوما سوفيتيا فى نوفمبر ١٩٣٩ على شرق فنلندا لتأمين حدود الاتحاد السوفيتى الشمالية الغربية . وبعد مقاومة باسلة انهزم الجيش الفنلندى ، ووقعت معاهدة موسكو فى ١٢ مارس ١٩٤٠ تنازلت فنلندا بمقتضاها عن مناطق كاريليا الشرقية .

وفى عام ١٩٤١ دخلت القوات الألمانية فنلندا . وعندما هاجمت ألمانيا الاتحاد السوفيتى فى يونية ١٩٤١ كانت قواتها متمركزة فى فنلندا .

وللمرة الثانية حاربت القوات الفنلندية السوفييت واستعادت فى البداية جزءا من أراضى كاريليا الشرقية ! غير أن هزيمة ألمانيا فى شتاء ٤٢ ـ ١٩٤٣ ونجاح القوات السوفيتية فى دخول شرق فنلندا فى عام ١٩٤٤ أدى إلى توقيع الهدنة فى سبتمبر ١٩٤٤ والاعتراف بمعاهدة موسكو لعام ١٩٤٠ .

ورفض الجيش الألمانى ترك البلاد ، وعاث فى شمال فنلندا تخريبا أثناء انسحابه ، وأخيرا وقعت اتفاقية السلام فى باريس فى ١٠ فبراير ١٩٤٧ .

وفى ربيع ١٩٤٨ وقعت اتفاقية صداقة وتعاون ومعونة متبادلة بين فنلندا

والاتحاد السوفيتى ، وهى التى تحكم العلاقات بين البلدين حتى الوقت الحاضر .

أما عن نظام الحكم فهو النظام الجمهورى الرئاسى الديمقراطى الغربى . وتُشَكَّل الوزارة من حزب الأغلبية يرأسها رئيس للوزراء ، وهناك العديد من الأحزاب : الحزب الزراعى أو الوسط ، والاشتراكى الديمقراطى ، والحزب الشيوعى ، وعدد من الأحزاب الصغيرة المنشقة . ومن العسير أن يحصل حزب واحد على الأغلبية الساحقة بحيث يشكل الحكومة ، بل المألوف أن تتشكل الحكومة من أكثر من حزب بحيث يكون الائتلاف أغلبية فى البرلمان لتولى الحكم ، ويراعى فى ذلك عدة اعتبارات وتوازنات سياسية داخلية .

وللرئيس الفنلندى صلاحيات واسعة فى مجال الشئون الخارجية . وقد انتخب زعيم حزب الوسط أرهو كيكونين ـ وهو من مواليد عام ١٩٠٠ ـ رئيسا للبلاد عام ١٩٥٦ . وهو شخصية متميزة ذو إدراك واسع بمجريات الأمور العالمية ، وقد نجح فى تسيير دفة الحكم فى بحار صعبة وتيارات داخلية متضاربة ، وفى قيادة شعب يكاد كل فرد فيه أن يشكل حزبا لذاته !

وقد قدمت له أوراق اعتمادى فى عام ١٩٦٨ وغادرت فنلندا بانتهاء مهمتى عام ١٩٧٣ وبقى رئيسا للبلاد حتى عام ١٩٨٢ أى لمدة ٢٦ عاما .

وقد نجح الرئيس كيكونين بصفة خاصة فى كسب ثقة جيرانه السوفييت ، وتحسين علاقاته بالغرب فعقدت المحادثات التمهيدية لمؤتمر الأمن والتعاون الأوربى فى هلسنكى فى نوفمبر عام ١٩٧٢ التى أسفرت بدورها عن عقد مؤتمر قمة فى يولية / أغسطس ١٩٧٥ حضره ٣٥ رئيس دولة من أوربا وأمريكا الشمالية على نحو غير مسبوق فى التاريخ الدبلوماسى .

وقد توفى كيكونين أخيرا فى أغسطس ١٩٨٦ .

وقد حاول الخط الرسمى للسياسة الخارجية الفنلندية جاهدا أن يتبع سياسة الحياد ، وفسر ذلك الحياد على أنه مزيج من الحياد الايجابى وعدم الانحياز مع الابتعاد عن التكتلات والمحاور العسكرية .

وفى نفس الوقت تأخذ تلك السياسة فى اعتبارها الصداقة والتعاون مع

الاتحاد السوفيتى . وقد وصفت تلك السياسة « بالفنلدة Finlandization »
وكتب فى شرحها الكتب والمؤلفات بين محبذ ومعلق ومنتقد . وقد قصد بها أن تكون نموذجا لعلاقة السوفييت بفنلندا بحيث تحتذى بها الدول الأوربية الأخرى المجاورة للسوفييت والتى تتعرض بحكم الجوار لضغوط سوفيتية .

والهدف من تلك النظرية الاقتراب من نموذج سويسرا والنمسا فى الحياد ولكن مع القيام بدور نشيط فى تخفيف التوتر والتهدئه بين الشرق والغرب والحفاظ على علاقات طيبة مع الجارة الكبرى .

وقد لاحظت ـ رغم كل ذلك الجهد من جانب المسئولين الفنلنديين ـ أن الانطباع الغالب فى العالم الخارجى عن فنلندا أنها بلد شيوعى ضمن المنظومة الاشتراكية وهو أمر مخالف للواقع : ففنلندا من حيث نظام الحكم وأسلوب المعيشة بلد ينتمى للغرب بكل المقاييس .

طبعا هناك حزب شيوعى ، ولكن قوته لا تزيد على ١٥٪ من مجموع الناخبين . وتكاد تكون هذه النسبة ثابتة دون إحراز أى تقدم . والتجارة مع السوفييت تبلغ نحو ٢٠٪ من إجمالى تجارة فنلندا . ولكن الاتحاد السوفيتى يشكل قوة داخلية ضاغطة ومؤثرة . فلا يمكن مثلا تشكيل وزارة معادية للسوفييت . والسفارة السوفيتية فى هلسنكى مبنى هائل يضاهى فى ضخامته وزارة الخارجية الفنلندية ذاتها ! ولكن الشعب شديد الانفرادية وأبعد ما يكون عن التوجه الاشتراكى .

ولذا فكل الحديث عن الحياد والفنلدة لا يغير من الواقع شيئا إذ مازال من المشكوك فيه كثيرا اقتناع الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة بحياد فنلندى حقيقى فى مواجهة الجوار السوفيتى الذى هو حقيقة تاريخية فرضتها الظروف الجغرافية ، ولا سبيل إلى تجاهلها أو التقليل من ثقلها .

* * *

أما عن الناحية الاجتماعية فالشعب الفنلندى يتسم بالنزاهة والبساطة والواقعية ، وليس ميالا للبذخ أو المظهرية . ومن الطبيعى أن تحكمه ظروفه المناخية . فشهور الشتاء الطويلة تتميز فى البداية : نوفمبر ـ ديسمبر بالظلمة

الداكنة ، ثم تتساقط بعد ذلك الثلوج بغزارة وتسطع الشمس الباهتة فى فبراير ـ مارس .

وقد عودت تلك الطبيعة القاسية الشعب على الجلد والمثابرة وقوة الاحتمال . فتجد بعض هواة صيد الأسماك يحفر ثقبا فى الجليد يدلى منه السنارة لكى يصطاد الأسماك الصغيرة التى تعيش فى المياه الجارية تحت الطبقة الجليدية المتجمدة على السطح ، ويجلس لساعات طويلة فى البرد القارس يمارس تلك الهواية !

أما شهور الصيف : يونية ـ يولية فأيامها أعرض من طولها ، ونهارها أطول من ليلها .

وقد ترك ذلك الطقس بصماته على طباع الشعب ، وعزلته النسبية عن العالم الخارجى .

كما دفع الجو الشديد البرودة الكثيرين إلى تناول المشروبات الروحية . ولديهم إنتاجهم الخاص من الفودكا ، وفى الريف لديهم مشروب كحولى يستخرج من جذوع الأشجار فى الغابات ! وطبيعى أن الحكومة تحاول الحد من تداول الخمور وبيعها فى متاجر خاصة حصصا شهرية لأفراد المواطنين ولكن مع كل النوايا الحسنة والجهود المبذولة طالما بقيت فنلندا على مشارف الدائرة القطبية بقى تناول المشروبات الروحية فى شىء من الاسراف أحيانا عادة اجتماعية لا سبيل إلى درئها وإنما التخفيف من مضارها .

هذا وقد أقمنا وزوجتى علاقات قوية مع الكثيرين من الأصدقاء الفنلنديين ما زالت مستمرة ، ومحل اعتزازنا إلى يومنا هذا بعد أكثر من عشر سنوات على مغادرتنا هلسنكى فى عام ١٩٧٣ .

نافذة على الشيوعية

لم تتهيأ لى فرصة العمل فى الدول الشيوعية . والواقع أنه لا يمكن للدبلوماسى المتدرج خلال مدة خدمته بالخارج وهى حوالى ربع قرن ـ حيث يبقى فى كل بلد أربع سنوات فى المتوسط ـ أن يخدم فى جميع مناطق العالم .
ولما كنت قد سبقت لى الخدمة سنوات طويلة فى كل من لندن وواشنطن فرأيت انتهاز فرصة وجودى فى هلسنكى لكى أزور الاتحاد السوفيتى . وفعلا زرت لينينجراد وموسكو أكثر من مرة أعوام ٦٩ ـ ١٩٧١ لفترات قصيرة بطبيعة الحال .

سافرت وزوجتى بالقطار إلى موسكو . ويتحرك القطار يوميا من هلسنكى الساعة الثالثة بعد الظهر ، ويصل إلى لينينجراد صباح اليوم التالى وإلى موسكو عند الظهر .

وصالونات عربة النوم نظيفة والخدمة جيدة ، وطبعا لا يتكلم عمال البوفيه سوى اللغة الروسية ، ولا توجد قاعة للطعام ، وإنما يقدمون الشاى فى الأكواب الروسية التقليدية والفطائر . ويمكن عند توقف القطار فى بداية الحدود الروسية لبعض الوقت النزول وشراء السندوتشات الروسية من الجبن والسلامى الشهيرة .

وموسكو مدينة واسعة وشوارعها فسيحة ونظيفة ويمر وسطها نهر وهو فرع من نهر الفولجا ومبانيها ضخمة ، والأحياء الجديدة كلها عمارات نمطية متكررة الطوابق .

زرنا المتاحف التى تضم مخلفات الأسرة المالكة فى الكرملين وشهدنا أكثر من حفلة من حفلات الباليه : الجمال النائم وكسارة البندق فى مسرح البولشوى القديم ، ومسرح البولشوى الحديث ويسع ٦ آلاف متفرج ، وقد شيد المسرح بعرض الصالة وأدخلت فيه أحدث طرق تكبير الصوت والتكييف والاضاءة وصممت له منافذ ومداخل كثيرة بحيث لا يستغرق دخول وانصراف المتفرجين أكثر من دقائق .

كما شاهدنا السيرك الروسى الشهير ، وأسواق المدينة المغطاة « الجوم » وأهم معالمها : جامعة موسكو ، وقصور الضيافة والاستاد وحمامات السباحة المكشوفة المدفأة . . الخ .

كان الأداء فى الباليه موسيقى ورقصا غاية فى السمو والاتقان . وقد سألت مرافقى ماذا يحدث لو أن الراقصة الأولى مرضت هل يؤجل العرض (كما يحدث فى بلاد أخرى) فقال لى أن الدور الرئيسى يدرب عليه خمس راقصات ، ولو اعتذرت واحدة قامت به إحدى البدائل .

ووقفنا فى الطابور الطويل الذى لا ينقطع لزيارة قبر لينين الواقع فى قاعة فى سور الكرملين ، وقد حنط الجثمان ليشاهده الملايين .

ونزلنا المترو تحت الأرض ، وقد كسيت جدران بعض محطاته بالرخام الملون ووضعت التماثيل .

يقيم الدبلوماسيون (غير رئيس البعثة) فى مساكن توفرها لهم الحكومة حسب ظروف كل عضو الاجتماعية ـ متزوج أو أعزب ، منجب أو غير منجب ، عدد الأولاد المصاحبين . . الخ ولا سبيل أمام العضو لايجاد سكن بغير تدخل وزارة الخارجية حيث توجد عمارات ضخمة يقصر السكن فيها على الدبلوماسيين الأجانب .

كما توجد قيود على انتقال بعض الدبلوماسيين كالأمريكيين بحيث لا تزيد المسافة المسموح بها على ٢٥ ميلا خارج مدينة موسكو .

العمارة فى موسكو لها أسلوب مميز ومن أضخمها مبنى وزارة الخارجية السوفيتية ومكاتب الكوميكون ، مجلس التعاون أو التعاضد الاقتصادى للدول الاشتراكية الذى تأسس عام ١٩٤٩ . الفنادق قطاع عام ، والمحلات التجارية قطاع عام ، ومحلات بيع التحف القديمة ـ القومسيون ـ تديرها الدولة أيضا .

أما لينينجراد ـ وكانت فى الماضى بطرسبرج العاصمة الامبراطورية القديمة ـ فمدينة جذابة عريقة فى أصالتها فيها مسحة المدن الأوروبية الغربية الكبيرة ، وتنتشر فيها القصور والحدائق العامة وهى تطل على بحر البلطيق ، وبها قطع بحرية من الأسطول السوفيتى وتربطها بهلسنكى خلال أشهر

الصيف رحلات يومية بالبواخر يتخذها الفنلنديون فرصة للسياحة والاستمتاع بالمشروبات بغير حدود .

وقد أمضينا يومين فى مشاهدة التحف الفنية واللوح الزيتية والحلى الذهبية فى متحف الأرميتاج الشهير . وهو استعراض لتاريخ روسيا ومخلفات القياصرة النادرة التى لا تقدر بثمن ، وفيه قاعات تصور حملة نابليون على روسيا وهزيمته واندحاره فى الشتاء القارس ـ وهو مزار ممتع للسائحين .

وطبعا لا وجه للمقارنة بين تلك القصور والمخلفات المحفوظة بها وبين ما تبقى من مخلفات قصور الملك فاروق والأسرة المالكة التى عزلت منذ أكثر من ثلاثين عاما فقط !

ولا يضاهيها فى وفرتها وثرائها والعناية بها سوى قصور سلاطين آل عثمان فى اسطنبول على مشارف البسفور ، حيث نجحت الثورة الكمالية فى الحفاظ عليها : قاعة العرش والحرملك ومساكن الجوارى والآثار الاسلامية ، والملابس الملكية ، وأطقم المائدة والشراب ، والتحف والمجوهرات .

وعندما غادرنا لينينجراد بالتاكسى من الفندق أخذ يسوق بنا ويبتعد عن وسط المدينة وشعرت أنه يتجه بنا نحو المطار لأن المسافة بين الفندق ومحطة السكة الحديد لم تكن بكل هذا البعد ، وحاولت التفاهم معه ، ولكنه طبعا لا يعرف سوى الروسية ، وأخيرا أوقفته وقلت له : إننا سنأخذ قطار السكة الحديد ، وأخذت أمثل حركة القطار وأطلق صفيرا وأصواتا كالقطار ، وأهز ذراعى كأجنحة الطائرة وأقول له الطائرة لا لا وأخيرا فهم وأخذنا إلى المحطة قبل فوات الأوان . ويظهر أن سائقى التاكسى هم شأنهم كذلك فى كل مكان من العالم .

طبعا لا يمكن التعرض لنظام الحكم فى الاتحاد السوفيتى كدولة كبرى مترامية الأطراف أو تقييمه لمجرد قضاء زيارة سياحية أو أكثر فهذا أمر يحتاج لاقامة أطول ، ودراسة أعمق ، وهو ما لم يكن ميسورا بطبيعة الحال .

ولكن كلمة حق الشعب السوفيتى نفسه رجالا ونساء شعب عامل نشيط قوى الاحتمال شديد الاحترام للمواعيد ، يميل للبهجة والموسيقى والأكل

والشراب والغناء ، وفيه شيء من الأسلوب الشرقى العاطفى ولكنه يحذر الأجانب ، وطبعا عدم معرفة اللغة الروسية ـ بحروفها المختلفة فى النطق عن بعض الحروف اللاتينية وإن إتحدت معها فى الرسم يخلق حاجزا قويا فى وجه إقامة جسور التعارف والتقارب .

* * *

الفصل الرابع

خاتمة المطاف

إلى بغداد

فى يناير ١٩٧٦ بدأت الاستعداد للسفر إلى بغداد لتولى مهام منصبى سفيرا لمصر هناك . وقد سألت فى ادارة السفر بالوزارة ـ الخارجية ـ عن الطائرات المتاحة فقيل شركة مصر للطيران ، وعدد كبير من طائرات الشركات الاخرى التى تتجه إلى بغداد بدون توقف بينما تتوقف الطائرة المصرية فى دمشق .

فقلت لو أن السفير البريطانى سيتوجه للقاهرة لتسلم عمله هل سيستخدم خط طيران أجنبى ، أم شركة الطيران البريطانية ، فقيل البريطانية طبعا قلت ، وأنا كذلك سأسافر وعائلتى على الطيران الوطنى .

توجهت فى صباح يوم السفر لمقابلة الرئيس السادات فى مقره بالقناطر الخيرية بناء على موعد محدد . وكان حديثا طويلا تذكرنا فيه زيارته لسوريا وحلب عام ١٩٥٧ ، وتلقيت منه التوجيهات اللازمة .

وغادرت رأسا إلى المطار للحاق بالطائرة وكان الركاب بما فيهم عائلتى قد اخذوا مقاعدهم استعدادا للرحيل .

كانت الرحلة ممتعة ، وكنا محل الرعاية والترحيب . واعلن ربان الطائرة اننا سنهبط بعد قليل فى مطار دمشق الدولى .

وفعلا هبطت الطائرة بسلام . وقبل أن تتوقف شعرنا أنها خرجت فى نهاية المدرج وأخذت تهتز اهتزازا عنيفا فوق أرض غير ممهدة وتطلعنا من النوافذ فوجدنا السماء داكنة والامطار تهطل بغزارة .

وما هى الا ثوان حتى أوقفت المحركات وفتحت الابواب وجاء المضيفون وقالوا اخلعوا احذيتكم واتركوا أمتعتكم واقفزوا على بساط النجدة الذى تدلى من باب الدرجة الأولى . وفعلا قفز الأولاد وزوجتى وخرجنا جميعا . وقيل

اركضوا سريعا بعيدا عن الطائرة واخذنا نجرى فى أرض وعرة مشبعة بالأمطار فى اتجاه مبنى المطار بين ابواق سيارات الحريق والاسعاف المنطلقة .

وطبعا فى مثل هذه المواقف لا فرق بين سفير وغفير . والمسألة أصبحت مسابقة فى العدو بالجوارب فى الوحل .

ولم ندر ما حدث سوى أننا وجدنا أنفسنا فى قاعة الانتظار وأمامنا الزميل المشرف على السفارة المصرية بدمشق يقول حمد لله على السلامة .

وبينما أنا أفكر فى الحقيبة التى كنت أحملها فى يدى عند السفر وبها أوراق الاعتماد إذا بى أجدها ملقاة فى القاعة ولا أدرى كيف جاءت !

وسألت عن الركاب والطائرة فقيل كل شىء على مايرام . وكل ما فى الأمر انه بالنظر للأمطار الغزيرة منذ الصباح ، فقد استمرت الطائرة بعد المدرج ولكن لم تحدث أية اضرار .

توجهنا مع الزميل إلى فندق سميراميس بعد جولة ليلية فى المدينة وتناولنا العشاء ، وقلت فرصة بمشاهدة دمشق بعد وقت طويل ١٨ سنة .

ولم نكد نتهيأ للنوم حتى جاءتنا اشارة من المطار أن طائرة ثانية وصلت من القاهرة وان ركاب بغداد عليهم التوجه إلى المطار للمغادرة .

وصلنا إلى بغداد قرب الفجر وقد انصرف غالبية المستقبلين فيما عدا سيارة السفارة وبعض العاملين بها . ودخلنا دار السكن والجو يغلبه السكون وقد انعكست أشعة الشروق على صفحة نهر دجلة الخالد حيث تقع الدار .

وقد سئلت عما حدث فقلت مجرد حادث بسيط يمكن أن يحدث لأى خط طيران وقد ارسلت الشركة طائرة ثانية لتنقل ركاب بغداد وهو ما كان ليحدث على غير خط الطيران الوطنى .

والواقع قليل من الناس فقط هو الذى يقدر حجم ما يتعرض له الدبلوماسيون من مفاجآت فى السفر سواء بالطائرات أو بغيرها إذ تقوم وظيفتهم على التنقل الدائم الأمر الذى يعتبر من مخاطر المهنة ولا يمكن درؤه .

واذكر أننى سافرت كثيرا بين عواصم بلاد أفريقية صغيرة فى وسط القارة أعوام ٦٦ إلى ١٩٦٨ : من نيروبى لكمبالا ، من كيجالى (رواندا) لبوجمبورا (بوروندى) . . الخ بطائرات عتيقة ذات محركات .

كانت الطائرة تجد صعوبة فى الارتفاع للطيران فوق قمم الجبال ، وإنما كانت تطير بينها . وكانت تعلو وتهبط فى المطبات الهوائية كالريشة فى مهب الرياح ، وتصدر أصواتا كأبواب البيوت القديمة المهجورة عند فتحها .

وإذا كانت قواعد المرور بالنسبة للسيارات فى كل دول العالم تنص على سحب الترخيص لتسيير السيارات التى تقادم عهدها ، فأولى أن يتم ذلك بالنسبة للطائرات . ولست أدرى ما إذا كانت المنظمة الدولية للطيران المدنى بمونتريال - وهى احدى وكالات الأمم المتحدة المتخصصة - تصدر مثل هذه التعليمات أو أن لها حق تعيين مفتشين ترسلهم لمختلف الدول للتحقق من أعمار الطائرات وموديلاتها . وكما كنا نشاهد فى أمريكا مقابر للسيارات تغطى مساحات شاسعة من الأفدنة ، ينبغى أن يكون هناك أيضا مقابر للطائرات التى انتهى عمرها الافتراضى حرصا على أمن وسلامة الركاب .

توطين الفلاحين

كنت اتطلع للخدمة فى العراق الشقيق باعتباره بلدا له حضارة ضاربة فى أعماق التاريخ فى بابل واشور ، وله تراث اسلامى عريق حيث قامت الدولة العباسية عبر عدة قرون ، وظهر فيها خلفاء طبقت شهرتهم الآفاق مثل : هارون الرشيد ، وفيه المزارات المقدسة فى كربلاء ، والنجف ، والكوفة ، كعبة الشيعة من المسلمين .

وعندما وصلت لبغداد وجدت نهر دجلة يتوسطها يجلب الخير والخصب والخضرة على جنباته ، وهو فى تدفقه واتساعه لا تكاد تفرقة عن نهر النيل .

وتتميز بلاد بين النهرين أو الرافدين برقعة زراعية شاسعة ووجود مساحات من الأرض الزراعية حول نهر الفرات وشرق نهر دجلة غير منزرعة رغم خصوبتها المتجددة إذ يجلب النهران الطمى من المنطقة الشمالية حيث

تهطل الامطار وتذوب الثلوج التى تكسو قمم الجبال الممتدة عبر الحدود التركية والايرانية ، وتتدفق المياه العذبة حتى يلتقى النهران فى « المقرن » بضعة كيلو مترات شمال البصرة ثم يصب ملتقى النهران فى شط العرب فى الخليج .

ولذا اتجه التفكير إلى استقدام مجموعة من الفلاحين المصريين للاقامة والتوطن فى العراق ، وبذلت فى سبيل ذلك خطوات عملية لتحقيقه .

وقد وقع الاختيار على قرية تسمى « الخالصة » تبعد حوالى ٦٠ كيلو مترا عن بغداد بنيت خصيصا لاستيعاب مائة عائلة من الفلاحين المصريين تضم الأسرة أربعة أفراد فى المتوسط .

وقد توجهت فى أبريل ١٩٧٦ إلى تلك القرية مع الاخوة العراقيين من اتحاد الزراعيين للترحيب بوصول أفواج الفلاحين . وتتألف الدار المخصصة للفلاح من ثلاث غرف ومطبخ كبير فيه ثلاجه وفرن بوتاجاز ، والحمام فيه سخان وغسالة أوتوماتيك . والقرية مزودة بالمياه النقية والكهرباء وشوارعها ممهدة ، وفى وسطها اقيمت سوق ومستوصف ومدرسة ابتدائية وصالة للحفلات والاجتماعات والمناسبات كالافراح ومسجد .

وبمجرد وصول العائلة المصرية يُسلم رب الأسرة بيتا وبقرة ومبلغا من المال ليعينه على بدء الحياة والانتاج ونصيبه من الأرض وهو من ٢٠ إلى ٢٥ دونما (الدونم ٢/٣ فدان) . ويضم الفلاحين جمعية تعاونية لديها عدد من المكائن مثل الجرارات والحصادات والموتورات وتمدها الجمعية الفلاحية فى بغداد بالسلف الزراعية لشراء البذور ورعاية المحصول . ويركز الفلاحون فى زراعتهم على الخضروات .

ولكى تنجح هذه التجربة روعيت عدة عوامل لتهيئة المناخ المناسب لانجاحها :

١ ـ الموقع من الناحية الجغرافية : فالقرية قريبة من بغداد ، أرضها منبسطة تشبه الأرض المصرية شقت فيها الترع والمصارف وليست منطقة تعتمد على الامطار مثلا .

٢ ـ من ناحية المناخ : فهو قريب الشبه جدا بجو مصر وخاصة الصعيد ، والقرية بعيدة عن المناطق الجبلية فى الشمال حيث تسقط الثلوج ، وهو ما لم يعتد عليه الفلاح المصرى .

٣ ـ من ناحية الاسكان : انشئت مساكن صحية بالطوب الأحمر فيها مياه جارية وكهرباء ، وزودت القريـة بالمـرافق والخدمـات وسوق ومدرسة . . الخ .

٤ ـ من الناحية النفسية : وحدة اللغة والعادات والتقاليد والدين والتراث . ورؤى كبداية قصر سكنى القرية على المصريين . وطبيعى أن اللغة العربية ـ رغم اختلاف اللهجة ـ تجعل الاندماج والتسويق سهلا ميسورا فضلا عن أن التليفزيون يدخل معظم منازل القرية ، ويشاهد سكانها الافلام والمسلسلات المصرية والعراقية .

٥ ـ الاعداد الدقيق : فقد توجهت وفود عراقية من اتحاد المزارعين إلى مصر لاختيار أصلح العناصر ، ووضعت قواعد وضوابط : فروعى أن يكون الشخص متعلما تعليما عاما وليس أميا ، وأن يكون سليم البدن لا يشكو من الأمراض المتوطنة (كالبلهارسيا) والا يزيد عمره على ٤٠ عاما ، متزوج وله أسرة بحد أقصى طفلين . وتم الاختيار من بين محافظات الشرقية والغربية والمنوفية من الوجه البحرى ، وبنى سويف والمنيا وسوهاج من الوجه القبلى .

وقد شدت هذه التجربة انتباه الكثيرين من المشتغلين بالزراعة والمتخصصين فى علم الاجتماع والدراسات السكانية ، وكانت محل زيارة ودراسة من جانب كثير من الوفود الزراعية من مختلف الدول المشاركة بالمؤتمرات الزراعية التى انعقدت فى بغداد .

وكان التساؤل يثور دائما هل هناك جوانب سلبية للتجربة ؟

وطبيعى هى كأى تجربة فيها جوانب سلبية وإنما محدودة للغاية . ومثال ذلك عندما زرنا القرية اكتشفنا أن بعض العناصر رغم اشتراط معرفة القراءة والكتابة الا أنها اندست بين الوافديين ، وهى غير مؤهلة . وفى بعض الحالات رب الأسرة يعمل حلاق صحة وليس له خبرة بالفلاحة ويود تأجير

أرضه ، ويفتح صالون حلاقة ! وشخص آخر يرغب فى أن يتزعم الفلاحين ويعمل عمدة وهم يزرعون له أرضه !

كذلك مشكلة ملكية الأرض . فالجمعية الزراعية العراقية كانت تفكر فى جعلها مزارع تعاونية جماعية على طريقة « الخولكوز » ولكن الفلاح المصرى يؤمن بالملكية الفردية ، ولذا أصر على أن يمتلك أرضه محددة حتى يبذل فيها قصارى جهده ويورثها لذريته .

والآن بعد مرور عشر سنوات ـ أى فى عام ١٩٨٦ ـ ماذا عن حصيلة تلك التجربة للفلاحين المصريين ؟

كان التوقع أنه لو أن بعض العناصر لم تستطع التأقلم بنسبة تصل إلى ١٠٪ فانها تعتبر تجربة ناجحة . وتدل معلوماتنا على أن ٨٦ عائلة من أصل المائة عائلة قد استقرت نهائيا بينما عادة لمصر ١٤ عائلة ، أى بنسبة ١٤٪ لم توفق وهذا يعتبر نجاحا كبيرا بكل المقاييس .

هذه التجربة الرائدة هى نموذج للتعاون البناء بين مصر والعراق . وقد بذلت الجهات الفلاحية العراقية ووزارة الزراعة العراقية جهودا كبيرة فى تخطى العقبات وتذليل الصعوبات التى واجهت التجربة .

وهذا هو السبيل العملى للتكامل الاقتصادى العربى ، وهو ما لم يحدث أثناء وحدة مصر مع سوريا أعوام ١٩٥٨ ـ ١٩٦١ ، ولا مع السودان رغم وحدة وادى النيل على امتداد تاريخها .

وفى لقاء مع الرئيس العراقى الراحل أحمد حسن البكر فى يوليه ١٩٧٧ قال لى : أنهم يرغبون فى التوسع فى استقدام الفلاحين المصريين من منطلق قومى ، فاذا ضاقت بهم الرقعة فى مصر ، ففى العراق مساحات شاسعة صالحة للزراعة ، وليس المطلوب فقط مائة عائلة بل مئات والآف ، مليون فلاح وكل فلاح يأخذ ثمرة جهده ويجنى حاصلات أرضه . فالقومية ليست مجرد أقوال وشعارات ، وانما ينبغى أن تترجم إلى أفعال وممارسات . وهذا هو أيضا فكر وقناعة واقتناع الرئيس العراقى صدام حسين .

المزارات المقدسة

لاحظت أثناء اقامتي ببغداد أن هناك تخطيطا مدروسا واعيا للنهوض ببغداد العاصمة ، وبكافة المجالات الزراعية والصناعية والعمرانية والنقل والمواصلات فى أنحاء العراق .

فبغداد الحديثة تقع على الجانب الشرقى لنهر دجلة حيث يرتفع عدد من الفنادق العالمية ، وتقام قاعة كبرى للمؤتمرات ، وحديقة عامة هى حديقة الزوراء أكبر فى اتساعها من حديقة « هايد بارك » فى لندن والمطار الدولى الجديد ، وحي انيق اسمه « المنصور » تقطنه معظم السفارات وبه ناد رياضى اجتماعي والعديد من مبانى ونوادى النقابات المهنية : المحامين والمهندسين والمعلمين . . الخ .

وفى خارج بغداد تبذل الجهود لاقامة المزارع تحت الصوب المغطاة لزيادة الانتاج فى ظروف مناخية بالغة القسوة حرارة وبرودة ، وتُنشأ محطة قرب « كركوك » فى مناطق انتاج البترول لنقله فى خط أنابيب عبر الحدود فى الأراضى التركية مئات الكيلو مترات إلى ميناء « جيهان » على البحر الأبيض المتوسط قرب مدينة «مرسين » مرورا بمناطق جبلية وعرة ، والعمل على ازدواج وتشجير الطريق السريع الذى يربط بغداد بالموصل فى الشمال والبصرة فى الجنوب بامتداد يجاوز ألف كيلو متر .

ويواكب ذلك جدية فى العمل والأداء ، فالوزارة والقيادات يحضرون إلى مكاتبهم فى الثامنة صباحا ، وكنت أحيانا أقابل وكيل وزارة الخارجية فى هذا الموعد المبكر .

وبغداد كمدينة تحكى تاريخها . ففيها مرقد أحد كبار الأئمة المسلمين وهو الامام أبو حنيفة ، وفيها أكثر من جامعة ، وقد أضيفت اليها فى عهد حكم البعث لمسات جمالية من الفنون التشكيلية الحديثة فى الساحات والميادين الكبيرة مثل مجموعة تماثيل على بابا ، والأربعين حرامى !

ولكن لعل أكثر ما يشد انتباه الزائر لبغداد ، والعراق بصفة عامة هى

المساجد ذات القباب المطلية بالذهب ، فهذه تعكس وهج الشمس لأميال بعيدة والشمس تسطع على مدار السنة ـ تحت هذه القباب أضرحة أئمة الشيعة ـ وفى بغداد أحد هذه المساجد هو مسجد الكاظمية ، وفى الشمال فى سامراء مسجد مماثل لاحد هؤلاء الائمة ، وطبعا أكثرها بهاء ورواء هى المزارات المقدسة فى النجف وكربلاء والكوفة .

زرنا النجف وكربلاء مع ضيوف لنا من القاهرة أكثر من مرة .

والنجف مدينة مقدسة عند المسلمين لوجود مرقد الامام على بن أبى طالب ، وهى مركز هام لتعليم العلوم الدينية . وعلى بعد ١٠ كيلومترات منها تقع مدينة الكوفة وبها المسجد الكبير الشهير الذى قتل فيه الامام على .

أما كربلاء فهى على مسافة نحو مائة كيلو متر جنوب غرب بغداد . وهى مدينة إسلامية مقدسة بها يرقد الحسين عليه السلام ، وإلى جواره مرقد أخيه العباس . واليها يحج المسلمون الشيعة من العراق والاقطار الاسلامية الأخرى وعلى الأخص إيران وأفغانستان وباكستان .

وقبة المسجد ـ كما اسلفنا ـ مطلية بالذهب . أما داخل المسجد فقد رصعت أبوابه وحوائطه وسقوفه بقطع صغيرة من المرايا وتدلت الثريات الكريستال وفرشت الأرض بالسجاد الايرانى الفاخر . ولديهم صناديق موضوع بها قطع من الحجارة من أرض معركة الاستشهاد يضعها المصلى تحت جبهته ، وهو ما لا يفعله المسلمون من أهل السنة .

ويدل البذخ على تقدم فن المعمار والنقوش والزخرفة الاسلامية لدى الصناع المهرة من إيران .

واذكر أنه أثناء إحدى زياراتنا لكربلاء تعرفنا على مجموعة من السياح الروس ومعهم مرافق من السفارة السوفيتية ببغداد جالسين باحدى الاتوبيسات يشاهدون المسجد من الخارج وقد رفض الحراس السماح لهم بالدخول ـ وجاءتنا واحدة منهن وقالت أنها من احدى الولايات السوفيتية المسلمة فى أوزبكستان وتود الدخول معنا ، وفعلا اعطيناها عباءة سوداء ـ وهى لابد للسيدات جميعا من لبسها توقيرا للمسجد ـ تخفت فيها وغطت

رأسها ووجها ودلفت معنا تشاهد تلك الروائع بالداخل وعندما خرجت أخذت تروى لبقية الوفد السياحى فى ذهول ما شاهدت وطبعا لا تعرف كلمة واحدة عربية .

هذه المزارات المقدسة هى كعبة الشيعة من المسلمين ، وتعكس وزن الشيعة من أهل العراق . فأولا يبلغ عدد سكان العراق ١٢ مليون نسمة . وقد اجرى الاحصاء فى أحد أيام العطلة فى شهر أكتوبر ١٩٧٧ حيث فرض حظر التجول ، والزم المواطنون بالبقاء نهارا فى منازلهم وأغلق مطار بغداد الدولى فى وجه الملاحة الجوية ، وكلف الآلاف من الموظفين بالمرور على المساكن والأماكن العامة لحصر المواطنين على الطبيعة ، وجاءنا بدار سكن السفارة عدد منهم ومعهم استمارات خاصة بالاحصاء لملئها ، وقد علمت من بعض السفراء الأجانب أنهم لم يملأوا الاستمارات استنادا إلى حصانتهم الدبلوماسية .

واظن أن هذه الطريقة فى الاحصاء بالجهد البشرى أدق من طريقة الحسابات التقديرية بالكمبيوتر على أساس متوسط عدد المواليد والوفيات فى لحظة معينة على نحو ما تفعل الولايات المتحدة الأمريكية ، وتتبعها فى نفس الأسلوب أغلب دول العالم ، ولكنها طبعا طريقة مكلفة للغاية . المهم أن عدد السكان الشيعة فى العراق يشكل حوالى من ٥٠ إلى ٥٥٪ من مجموع السكان أغلبيتهم الساحقة عرب ، والسكان السنة حوالى ٤٣٪ منهم ٢٥٪ من السكان عرب وسنة ، ١٨٪ أكراد وسنة ، وباقى السكان ما بين مسيحيين ويهود .

والمعروف أن الاكراد يقطنون فى المنطقة الجبلية الشمالية الشرقية فى السليمانية واربيل المتأخمة للحدود الايرانية والتركية .

هذه الاحصاءات التى تذكرها المصادر الغربية تحتاج لوقفة . الشيعة فى اللغة العربية معناها الاتباع والانصار ، وقد أطلق اللفظ على الذين ينادون بالامامة لعلى وأهل بيته على اختلاف فى وراثة الامامة بين ولده . ومن فرقهم الاثنا عشرية والزيدية والاسماعيلية . وقد تركوا بصماتهم على الحياة السياسية والفكرية فى الاسلام .

وأهم ما يميز مذهب الشيعة هو نظرية « الامامة » التى تنطوى على أن

خليفة الرسول هو أكثر من مجرد زعيم سياسى ، وانما ينبغى أن تنعقد له « الولاية » أى التفقه فى الشريعة والقدرة على تبيان أحكام القرآن . « والولاية » تعنى العصمة من الخطأ والخطيئة وان الاختيار قد تم من الله عن طريق الرسول .

وهذه احدي نقاط الخلاف الرئيسية بين الشيعة والسنة ـ ويتمركز السكان الشيعة حول المزارات المقدسة ، وفى جنوب العراق حيث يمارسون طقوسهم فى التعزية فى يوم العاشر من محرم (عاشوراء) يوم ذكرى وفاة الحسين .

والحكم فى العراق يتولاه السنة ، ولكن حزب البعث منذ أن تولى السلطة فى عام ١٩٦٨ لم يبرز الصفة الدينية المذهبية للسنة . كما أن نزوح الفلاحين الشيعة إلى بغداد والمدن الكبرى وازدياد فرص التعليم والخدمات الاجتماعية والتوسعات الصناعية من شأنها أن تقلل من أهمية التفرقة بين السنة والشيعة .

إلى طهـران

بعد أن أمضيت عاما فى بغداد كان من الضرورى زيارة ايران . وكنت خلال خدمتى بالسلك الدبلوماسى أضع لنفسى قاعدة ، وهى أن أمضى عامى الأول فى الدولة المعتمد لديها أزور مناطقها المختلفة ، وفى العام الثانى أزور الدول المجاورة . فعندما كنت فى سوريا فى الخمسينات سافرت بالسيارة من حلب إلى انقره مرورا بالاسكندرونه وأضنه ، ثم إلى استامبول مرورا بمدينة بورصة الشهيرة بمياهها ومطاعمها . وعندما كنت فى كمبالا زرت نيروبى والخرطوم والكونجو (زائير) وعندما كنت فى هلسنكى زرت استكهولم وكوبنهاجن ولينينجراد وموسكو . وهكذا .

وسوف يجد الدبلوماسى فى اى موقع يعمل فيه أن الكثير من القضايا السياسية الداخلية فى البلد المعتمد فيه لها جذور تاريخية تفسرها علاقات

الجوار سواء كانت غزوا أو احتلالا أو اندماجا أو نزاعا أو حسن جوار . ولذا فإننى أوصى الدبلوماسى أيا كانت درجته الوظيفية أن يضع لنفسه برنامجا لزيارة الدول المجاورة للدولة الموفد اليها من قبيل الدراسة والسياحة والاحاطة والالمام بالواقع الجغرافى فى المنطقة . وأن يتجاوز أية صعوبات أو عقبات مادية قد تعيقه عن القيام بمثل هذه الرحلات . وأول هذه الصعوبات فى تقديرى هى مجرد التردد والكسل ، ولكنه متى اقدم على القيام بها فسوف يجد فيها فائدة كبرى وراحة وخبرة وإثراء لمعلوماته بل وارتفاعا فى مستوى أدائه لوظيفته .

وبالنسبة لزيارة إيران فكانت الفكرة تستهوينى منذ كنت أعمل بسوريا . فللفرس تاريخهم العريق وحضارتهم الضاربة فى عمق الزمان . وهم منذ الغزو العربى واعتناقهم للاسلام اخذوا بمذهب الشيعة ، أو التشيع لعلى رابع الخلفاء الراشدين مما شكل شرخا عميقا واجتهادا فى الفكر الاسلامى واصبحت المزارات المقدسة فى النجف وكربلاء كعبتهم .

توجهنا – زوجتى وأنا – بالسيارة يقودها سائق السفارة عبر الحدود العراقية الايرانية فى شمال شرق بغداد فى منطقة « خانقين » فى فبراير ١٩٧٧ . المنطقة جبلية وعرة يقطنها على جانبى الحدود السكان الاكراد بازيائهم المميزة الرجال بسراويلهم ، والسيدات باثوابهن ذات الألوان الزاهية المزركشة . والطريق واسع وممهد واحيانا ذو اتجاهين .

وأول ما صادفنا على الجانب الايرانى محطة إذاعة معروفة فى المنطقة هى محطة « قصر شيرين » تذيع ارسالها باللغة العربية .

تجولنا فى مدينة « كرمانشاه » وامضينا ليلتنا ثم واصلنا السفر فى الصباح إلى طهران مرورا « بقزوين » فوصلنا اليها عند الظهر .

وطهران مدينة جميلة تجمع بين القديم والحديث : السوق المغطية والعمارات الشاهقة .

وطبيعى أن أول ما يتجه اليه التفكير هو مشاهدة السجاد الذى تشتهر به ايران . ووجدنا أن هناك شارعا اسمه « خيبان فردوسى » يضم أفخر محلات السجاد ، وأن غالبية أصحاب المحال من اليهود الايرانيين . وعندما عرفوا أننى سفير مصر بالعراق أصروا على أن يبيعوا لى قطعتين فاخرتين من السجاد الحرير (كاشان ونايين) وأن ارسل لهم الثمن بعد عودتى إلى بغداد ! وطبعا لم ترفض زوجتى العرض .

زرنا معالم المدينة ومتاحفها - سراى الشاه السابق ومجموعة مجوهرات التاج - ودعينا لأكثر من حفلة زفاف لعائلات إيرانية موسرة فى أكبر فنادق طهران ، وكان مستوى البذخ واضحا ، وكميات الحلى التى ترتديها المدعوات ، والأكل والشراب الوافر كليالى ألف ليلة وليلة .

ودعينا برفقة سفيرنا فى طهران إلى احدى حفلات السهرة الخاصة فى فيلا طبيب جراح إيرانى مشهور أستاذ كبير فى الجامعة .

وقد لاحظت أن مستوى جمال السيدات الايرانيات الحاضرات مرتفع للغاية ، وأن انوفهن صغيرة ودقيقة وبشرة وجوههن ناصعة البياض ولم استطع مقاومة ابداء هذه الملاحظة ، فاتضح أن المضيف هو جراح تجميل وان جميع المدعوات من الارستقراطية الايرانية قد أجرى لهن المضيف عمليات تجميل ناجحة فى وجوههن ، ولعل أقل العمليات توفيقا هى التى اجراها لزوجته !

كان الشتاء قارسا ، والثلوج تكسو الأرض وتشاهد من بعد على قمم الجبال شمال طهران .

كانت هذه الزيارة فى بداية عام ١٩٧٧ ، وكل شىء يبدو هادئا على السطح - ولكن الدبلوماسى المحنك المعتمد بالبلد لابد أن يكون ذا بصيرة نافذة لابعد من مجرد الحفلات الساهرة ، والدعوات الفاخرة ، وأن يقيم الاوضاع

من حيث أسلوب الحكم ومدى اقترابه من الديمقراطية وكفالة الحريات وحقوق الانسان ، والظروف الاجتماعية ، السائدة من حيث مستوى المعيشة والدخول ، والتفاوت أو التقارب بين الطبقات ، ثم نزاهة الحكم ومدى انتشار الفساد أو الرشوة أو المخدرات . فالحكم عن طريق القهر والرقابة وتكميم الأفواه والدكتاتورية والحرس الخاص وأجهزة الاستخبارات مخالف لطبائع الاشياء ، وقد يستمر امدا ، أو عشرا ولكن لابد من سقوطه أو اسقاطه .

وفى هذه الفترة بالذات كان « اية الله روح الله الخمينى » يعيش فى النجف الأشرف فى العراق منذ عام ١٩٦٤ . وقد اضطر لمغادرة البلاد بعد ذلك فى أكتوبر ١٩٧٨ إلى ضواحى باريس . ولكنه لم يقم طويلا هذه المرة بل عاد إلى إيران منتصرا فى أول فبراير ١٩٧٩ بعد خروج الشاه لكى يبدأ تجربته فى تطبيق الشريعة الاسلامية وفق مبادىء الشيعة ، ويحاول تصديرها إلى باقى البلاد الاسلامية .

والسؤال الذى يطرح نفسه هل كان فى مقدور الدبلوماسى المخضرم المعتمد فى طهران عند زيارتى لها فى عام ١٩٧٧ أن يتنبأ بمصير الشاه وبعودة الخمينى من منفاه . هل كانت أوضاع الشعب قد وصلت إلى ذلك الحد من السوء والسخط والتردى بحيث قاربت نقطة الانفجار هل كان نظام الشاه يمارس رخاء ظاهريا هو فى واقع الأمر حلاوة الروح قبيل الاحتضار ؟ كل هذه الأسئلة تدافعت فى ذهنى عندما توجه الخمينى لحكم ايران وكنت وقتها فى القاهرة . ومن حسن الحظ أنه لم يكن مطلوبا منى الاجابة على هذه الأسئلة وغيرها لأن زيارتى لايران فى مطلع ١٩٧٧ كانت مجرد رحلة سائح عابر ليس من مهمته تحليل الأوضاع ، أو طرح التوقعات وإصدار التنبؤات .

حاشـــية

خلال خدمتى بالعراق توثقت العلاقات المصرية العراقية وحققت تعاونا واسعا بناءا فى العديد من المجالات ، فكان لدينا عدد كبير من الأساتذة فى مختلف التخصصات فى جميع الجامعات العراقية ، ثلاث جامعات فى بغداد وجامعة فى كل الموصل والبصرة والسلمانيه (أربيل) كما كان لدينا عدد من الطلبة المصريين يدرسون بهذه الجامعات يشرف عليهم مكتب ثقافى .

ويوجد عشرات الآلاف من المصريين يعملون فى المؤسسات والبنوك والشركات والمقاولات والفنادق والحرف والصناعات الصغيرة والمزارع والبساتين . كما وجد تعاون عسكرى متطور خاصة فى مجال الطيران ولدينا مكتب مستقل للملحق العسكرى .

ومن الطريف أنه أثناء احدى زيارات « نائب الرئيس المصرى ـ حسنى مبارك ـ المتكررة » لبغداد للتشاور وتبادل الرأى والتنسيق مع القيادات العراقية وذلك فى نوفمبر ١٩٧٦ كنا بانتظاره بالمطار مع كبار رجال الدولة والمسئولين العراقيين ، وعندما نزل من الطائرة الخاصة التى كانت تقله عزفت الموسيقى السلام الجمهورى المصرى تحية للضيف ثم السلام الجمهورى العراقى وإذا بهما نفس النوته الموسيقية ، لدرجة أن البعض لاحظ أنه كان يكفى أن يعزف السلام مرة واحدة طالما أن السلامين متطابقين عنوانا على وحدة الهدف بين البلدين .

ولم يكن هذا الأمر مفاجأة لى لأنه عندما كنت سفيرا فى هلسنكى قبل ذلك بسنوات عام ١٩٧٢ حضر من استكهولم سفير العراق لتقديم أوراق اعتماده سفيرا غير مقيم فى فنلندا ، ولم يكن ذو خلفية أو خبرة دبلوماسية ، واظنه كان من رجال التعليم ، المهم أنه لم يحضر معه النشيد القومى لدولته وليس لديه وقت لكى يبعث لبغداد لموافاته به ، وقد اتصل بى مدير المراسم بالخارجية الفنلندية فى محاولة للخروج من المأزق ، فقلت له أنه حسب علمى النشيد الوطنى العراقى هو نفس النشيد الوطنى المصرى وارسلت له النوته الموسيقية ، وكلمات النشيد . وعندما أطلع عليها سفير العراق أكد للفنلنديين

أنها فعلا النشيد الوطنى العراقى ، وجرت مراسم تقديم أوراق الاعتماد ، وصدحت موسيقى الحرس الجمهورى بالنشيد الوطنى العراقى !

* * *

على انه على أثر ما عرف من أن الرئيس السادات سيقوم بزيارة لاسرائيل فى مهمة سلام ويلقى خطابا فى الكنيست الاسرائيلى فى ٢٠ نوفمبر ١٩٧٧ يطالب فيه بسلام عادل ودائم للمشكلة الفلسطينية . تدهورت العلاقات المصرية العراقية بسرعة ، وبدات أجهزة حزب البعث تعبىء الشعور العام ضد هذه الخطوة ونظمت المظاهرات والمسيرات لشجبها واستنكارها وتقرر عقد اجتماع للجامعة العربية فى بغداد لتدارك هذا الأمر .

تلقيت فى هذه الأثناء برقية رمزية باستدعائى للتشاور وحزمت أمرى على السفر إلى القاهرة فى اليوم التالى . مثل هذا التوتر الطارىء فى العلاقات هو من طبيعة الأشياء فى العمل الدبلوماسى وقد عودتنى خبرتى الطويلة على أن أكون جاهزا للتحرك بأشعار قصير الأمد ، ولذا عندما اتصل بى الملحق العسكرى ، وكان قد تلقى استدعاء مماثلا قلت له أننى سوف أغادر بغداد فى أقل من ٢٤ ساعة .

وقد توجهت على الفور لمقابلة المسئولين العراقيين ، وابلغتهم باستدعائى وسفرى للقاهرة وتمنيت خيرا لمستقبل العلاقات بين البلدين الشقيقين ، وأوضحت لهم أمرين الأول ضرورة حماية مقر السفارة المصرية ودار السكن من أى مسيرات أو زحف جماهيرى من منطلق الأخوة العربية والالتزام بالاعراف والمواثيق الدولية وتفاديا من المعاملة بالمثل للبعثة العراقية بالقاهرة . والأمر الثانى هو أنه وردتنى شكاوى من كثير من المصريين العاملين أنهم يتلقون لوما وأحيانا إهانة من زملائهم العراقيين ، وأن بعض الطلبة المصريين بالمدارس لا يستطيعون الذهاب لمدارسهم حيث يهزأ بهم زملائهم الطلبة بسبب خطوة الرئيس السادات . وهؤلاء المصريون فى كل موقع يقدمون ما يستطيعون من عطاء ويؤدون واجبهم فى أمانة واخلاص .

وللحق كانت استجابة الجانب العراقى فورية وحاسمة ومشرفة فعن

الشق الأول توجهت قوات من المغاوير (الصاعقة) لحراسة مقر السفارة . واجتمعت المسيرات وتكلم الخطباء وابدوا شعورهم ووجه نظرهم وانفضوا فى سلام .

كما صدر تعميم سرى من القيادة الحزبية على أعلى المستويات إلى جميع القواعد والكوادر بضرورة حسن وفادة المصريين لأن هؤلاء أخوة للعراقيين يتعاونون معهم فى بناء النهضة الشاملة التى ينعم بها الشعب العراقى ، وأنهم غير مسئولين عن تصرفات رئيسهم . وقد كان التعميم من الروعة والحسم لدرجة أن الكثيرين من المصريين اتصلوا بى واندهشوا من المعاملة الكريمة والترحيب الذى يتجاوز كل الحدود الذى يلقونه من اخوتهم العراقيين فى مواقع العمل !

لذا عندما نشبت العمليات العسكرية بين العراق وايران فى عام ١٩٨١ وكنت بالقاهرة أسفت لوقوعها لأنها سوف تعنى بالضرورة وقف مسيرة التعمير والرخاء الذى شهدته فى العراق ، وسوف تخلف كثيرا من الضحايا والشهداء والمعوقين من الجانبين وربما تدمير بعض المنشآت العامة والمرافق الحيوية ودور الخدمات .

والآن وقد مضى نحو خمس سنوات على ذلك النزاع المسلح تردى الوضع العسكرى فى المنطقة فى ضوء احتلال إيران لاجزاء من الأراضى العراقية فى جزيرة الفاو فى الجنوب والمنطقة الكردية فى اتجاه مدينة السلمانية فى الشمال الشرقى وازدياد هجمات الطيران العراقى والبحرية العراقية على منافذ البترول الايرانى فى جزيرة خرج وناقلات البترول فى الخليج .

وفى نفس الوقت اصطدمت كل محاولات ايجاد حل سلمى لتلك الحرب بعقبات كأداء ، وعجزت قرارات الأمم المتحدة ومساعى منظمة المؤتمر الاسلامى ودول عدم الانحياز وجهود بعض الدول عن احراز أى تقدم نحو اختراق الطريق المسدود إلى التسوية السلمية .

وهى حرب بين دولتين إسلاميتين يتعدى تأثيرها بالضرورة الى خلق جو من التوتر ، وزعزعة الأمن والاستقرار فى دول الخليج جميعها ، وارهاق اقتصاديات دول المنطقة ومواردها .

ومن المؤسف أنه مما يساعد على تعميق الصراع المسلح بين البلدين واستمراريته انقسام الدول العربية ذاتها ـ لاعتبارات مختلفة ـ بين مساعدة إيران من جانب سوريا وليبيا ومن وراءهما ، ومساعدة العراق من جانب مصر والأردن والدول الخليجية .

ولست أدر ما سوف يكون عليه مستقبل تلك الحرب وقت صدور هذا الكتاب ، ولكن لا أظن أن القارىء يتوقع منى حلا لذلك الصراع المسلح ، فهو أمر فى تقديرى منوط بالدرجة الأولى بالقادة السياسيين ورجال الحكم فى البلدين ثم فى الدول المجاورة وباقى زعماء العالم وهو أكبر من أن يحله الدبلوماسيون .

بقى أن أشير إلى أنه عندما غادرت العراق على عجل فى أواخر نوفمبر ١٩٧٧ تبع ذلك قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين ، وكان عدد المصريين يقدر فى ذلك الوقت بنحو خمسين ألف مواطن .

والآن بعد نحو تسع سنوات لم تعد العلاقات الدبلوماسية الرسمية بين مصر والعراق . وإن كان يرأس مكتب رعاية المصالح فى كل من الدولتين دبلوماسى بدرجة سفير . واتسع مجال التعاون وخاصة فى النواحى العسكرية بما يفوق بمراحل التعاون فى أحوال العلاقات الدبلوماسية العادية ! وتضاعف عدد المصريين العاملين بالعراق أكثر من عشر مرات بحيث يقدر البعض عددهم ـ فى غيبة احصاء دقيق ـ بأكثر من مليون نسمة !

العـودة للوطن

عدت إلى القاهرة وقد عهد إلى الاشراف على معهد الدراسات الدبلوماسية بوزارة الخارجية الذى يتولى تدريب الدبلوماسيين العاملين بالوزارة بعد أن أصبحت الدبلوماسية مهنة تحتاج لمهارات متخصصة لمتابعة المتغيرات فى العلاقات الدولية .

وقد شعرت بأن الوقت قد حان لكى أستقر فى وطنى خاصة وأن أولادى التحقوا بالجامعة الأمريكية بالقاهرة .

والذى يعمل بالسلك الدبلوماسى ممثلا لدولته بالخارج ينفتح ولا شك على ثقافات وحضارات مختلفة ويمارس عمله تحت مظلة من المزايا والحصانات الدبلوماسية والاعفاءات الجمركية ، ويختلط بشرائح اجتماعية متميزة . ولكنه فى كل ذلك يعيش غريبا مشدودا لبلده ، ولا يشعر بالراحة والاطمئنان مثلما يشعر بهما عند عودته لوطنه وأهله أيا كانت ظروف بلده وأوضاعه . إنه الشعور الكامن بالانتماء والاحتواء والاسترخاء .

كما أحسست بعد مسيرتى الدبلوماسية والخبرة التى اكتسبتها أنه من الواجب أن أنقل إلى الاجيال القادمة من الشباب الدبلوماسى المصرى بعضا من هذه الخبرات ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

وكانت أولى هذه المهام المشاركة فى اختيار أفضل العناصر المتقدمة للالتحاق بالسلك الدبلوماسى ، وضرورة الحفاظ على مستوى مشرف للعاملين بتلك المؤسسة التى هى واجهة الدولة فى الخارج .

وقد هيأ لى موقعى السفر للاطلاع على نظم معاهد التدريب الدبلوماسى فى كل من فرنسا وألمانيا الغربية والنمسا .

وفى صيف ١٩٨٠ انعقد مؤتمر مديرى المعاهد والاكاديميات الدبلوماسية فى القاهرة فى فندق مينا هاوس عند سفح أهرامات الجيزة بدعوة من وزارة الخارجية المصرية ـ وهى جمعية دولية مقرها فيينا تجتمع سنويا لتدارس أوضاع العاملين بالسلك الدبلوماسى فى مختلف دول العالم

وقد أثير فى الاجتماع موضوعات شيقة منها اختيار نوعية الراغبين فى العمل فى السلك الدبلوماسى . والقاعدة المتبعة فى غالبية الدول هى وضع اختبار سابق تحريرى وشفوى للتعرف على قدرات المتقدمين لوظائف بداية السلك .

وكان التساؤل هل يحق للحاصلين على بكالوريوس الطب أو العلوم أو الزراعة أو العلوم العسكرية أو الشرطة التقدم لامتحان السلك . وقد لوحظ فى مصر مثلا أن بعض الاطباء والزراعيين قد تفوقوا فى الامتحان التحريرى ،

ويشمل عادة المواد المتصلة بمهنة الدبلوماسية مثل العلاقات الدولية والاقتصاد والعلوم السياسية والدبلوماسية واللغات الأجنبية .

ويعارض بعض كبار الدبلوماسيين السماح لخريجى الكليات العملية الالتحاق بالسلك بحجة أن لا يسمح لخريجى العلوم السياسية أو الحقوق مثلا بالالتحاق بمهنة الطب أو الهندسة .

ولكن مؤتمر مديرى المعاهد والاكاديميات الدبلوماسية رأى بالاجماع أنه لا ينبغى التفرقة بين خريجى الكليات النظرية والعملية ، وأن العبرة هى بالتفوق فى امتحان المسابقة الذى تعده وزارات الخارجية . وأضاف مدير معهد الخدمة الخارجية الأمريكى بأن ذلك حق دستورى لأى مواطن لا يمكن المساس به أو حرمانه منه .

ولست أدرى ما هو احساس القارىء ، وهل هو يؤيد قرار مديرى المعاهد الدبلوماسية فى العالم ، أم أن له رأيا مخالفا ـ علما بأن بعض السفراء النابهين فى السلك الدبلوماسى المصرى كانوا أطباء .

كذلك من الموضوعات الشيقة الشائكة هو التحاق المرأة بالسلك الدبلوماسى إذ تبلغ نسبتها الآن فى الدول المتقدمة ما بين ٥٪ ، ١٠٪ من مجموع العاملين بالسلك بالدولة المعنية ولم تحقق المرأة فى الدول الغربية نجاحا يذكر رغم ما اتيح لبعضهن من فرص فى رئاسة البعثات الدبلوماسية أو لدى الأمم المتحدة مثلما فعلت الولايات المتحدة الأمريكية من تعيين كلير بوث لوس أو شيرلى تمبل أو جين كيرك باتريك .

وطبيعى أن عضوية المرأة للسلك الدبلوماسى فى أى دولة تفرض قيودا معينة على تحركها وعلى نقلها لاعتبارات اجتماعية وأمنية مختلفة ، ولذا فانها لم يسمح لها بالالتحاق بالسلك الدبلوماسى فى بعض الدول العربية الاسلامية ، والأفريقية .

وفى مصر لا يفرق قانون السلك فى الالتحاق بوظائفه بسبب الجنس

ويوجد فيه نحو ٨٠ إمرأة موزعات على مختلف الدرجات بينهن واحدة سفيرة أى بنسبة ٧,٨٪ من مجموع أعضاء السلك الدبلوماسى المصرى .

ولكن ليس من صالح العمل ولا صالح المرأة ذاتها ، مراعاة للظروف العائلية والحياة الأسرية أن تزداد نسبة العاملات بالسلك كثيرا عن ذلك رغم أنه فى امتحان المتقدمين للالتحاق بالسلك كثير من الفتيات يتفوقن على الشبان ، ولكنه تفوق مرحلى وليس فى المدى البعيد .

وعلى الجانب الشخصى كان من المهم بالنسبة لى أن أفرغ من بناء منزلى الصيفى مطلا على البحر الأبيض المتوسط ٢٤ كيلو مترا غرب مدينة الاسكندرية فى منطقة جديدة اسمها « أبو تلات » بعد مصيف العجمى المعروف .

وأظن هذا هو ما يسعى اليه كل دبلوماسي يتقدم به العمر ويقترب من سن المعاش بحيث يؤمن لنفسه مسكنا ريفيا أو شقة أو فيلا فى أحد المصايف الهادئة المشمسة فى جنوب فرنسا أو أسبانيا أو البرتغال ، وخاصة من كبار دبلوماسى دول الشمال .

وما أن قاربت سن التقاعد حتى جاءتنى عروض للعمل كمستشار فى العلاقات الدولية من بعض المؤسسات الخاصة والعامة . وسن التقاعد للدبلوماسيين فى مصر ـ شأنهم شأن موظفى الحكومة عموما ـ هو ستون عاما . وهى السن المقررة فى غالبية قوانين السلك الدبلوماسى فى الدول المختلفة ، وذلك باستثناء الدول الأوربية (ماعدا بريطانيا) والدول الأمريكية التى تبقى الدبلوماسيين فى الخدمة العاملة حتى سن ٦٣ سنة أو ٦٥ سنة حسب الأحوال للاستفادة من خبراتهم الطويلة المكتسبة عبر السنين .

والملاحظ أن الدبلوماسيين الغربيين يخططون مبكرا لخطوة الاحالة للمعاش . والبعض منهم خاصة الأمريكيين يعمل أستاذا للدبلوماسية والعلاقات الدولية فى الجامعات الأمريكية بينما غالبية دبلوماسيى العالم الثالث

عادة عندما تدهمهم سن المعاش لا يعرفون ماذا يفعلون ويضيعون وقتهم فى الجلوس فى المقاهى والنوادى .

وكانت أفضل العروض التى تلقيتها عرضا من المملكة العربية السعودية للعمل مستشارا بمعهد الدراسات الدبلوماسية حديث الانشاء التابع لوزارة الخارجية السعودية .

فى السـعودية

فى أوائل عام ١٩٨٤ اتصل بى مندوب معهد الأمم المتحدة للتدريب والابحاث « اليونيتار » وطلب منى الاستعداد للسفر إلى المملكة العربية السعودية للعمل مستشارا لمعهد الدراسات الدبلوماسية لبضعة شهور .

وقد كان ذلك مفاجأة سارة لى لأنه لم يسبق لى زيارة السعودية . وفعلا سافرت إلى جدة ، وهى مدينة تجمع بين التراث المعمارى الاسلامى العريق ، والامكانات والخدمات العصرية من كورنيش يمتد لعشرات الكيلو مترات على ساحل البحر الأحمر ، ومحطة تحلية مياه البحر جبارة ، وأسواق تجارية حديثة مكيفة على أحدث طراز تحيط بها ساحات واسعة لانتظار السيارات ، وطرق مزدوجة وكبارى علوية ، ومطار هائل وميناء ضخم . وقد زينت الميادين بأحدث قطع الفنون التشكيلية والتماثيل التى تعبر عن حضارة المملكة وتراثها .

ولم تدم أقامتى طويلا بجدة حيث تقرر نقل وزارة الخارجية السعودية إلى مبناها الجديد فى العاصمة الرياض فى أكتوبر ١٩٨٤ ، وكذا انتقال السفارات المعتمدة بالمملكة بدورها من جده إلى الرياض .

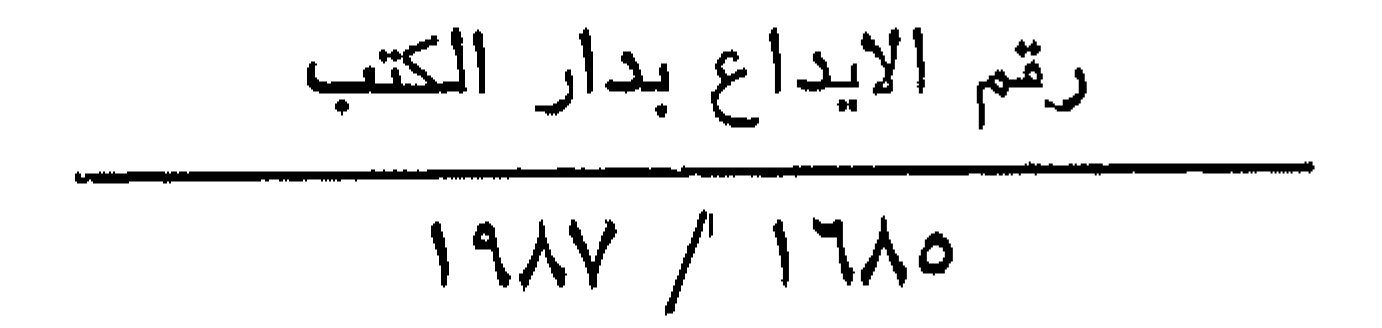
وبافتتاح وزارة الخارجية ، وهى تحفة معمارية رائعة تجمع بين طراز البيئة الصحراوية النجدية ، وأحدث أساليب التقنية العصرية فى الاتصالات الخارجية وحفظ المعلومات والمتطلبات الأمنية وأجهزة التكييف والاضاءة المنعكسة ونوافير المياه وقاعات الاجتماعات والاستقبالات والمآدب . وبادماج معهد الدراسات الدبلوماسية ضمن مبنى الوزارة ـ فيما عدا قسم تدريب

زوجات الدبلوماسيين السعوديين ، فله مبنى آخر مستقل فى الحى الدبلوماسى ـ بدأت تجربة جديدة فى العمل فى الرياض .

والرياض العاصمة وهى تحتفل فى مارس ـ آذار ـ عام ١٩٨٦ بمرور خمسين عاما على انشاء بلديتها قد قفزت بين الأمس واليوم قفزات عمرانية هائلة تجمع فى تمازج رائع فنون العمارة قديما وحديثا . وتعكس صور الماضى باصالته والحاضر والمستقبل بمعطياته وتقنيناته الحضارية .

والأهم من ذلك المواطن السعودى ذاته بما يمثله من قيم وتقاليد مستمدة من العقيدة والتعاليم الاسلامية ووثبته الكبرى تحت قيادة الأسرة المالكة بخيرها وبرها وإيمانها العميق من أبناء المغفور له جلالة الملك عبد العزيز آل سعود كل ذلك يستحق منا دراسة مستقلة وحديثا آخر .

* * *


رقم الايداع بدار الكتب

١٦٨٥ / ١٩٨٧

مطابع الأهرام التجارية القاهرة ـ مصر

حياة السفراء رغم جديتها وصرامتها والطابع الرسمى الذى يغلفها ، لا تخلو من مواقف طريفة ومآزق لها طابع فكاهى . وفى هذه المجموعة يروى السفير جمال بركات مجموعة من الطرائف والمواقف الطريفة التى تعرض لها أثناء عمله الطويل .

والسفير بركات من أبرز الدبلوماسيين المصريين ، فقد عمل سفيرا لبلاده فى أوغندا وبوروندى وفنلندا والعراق ، كما عمل فى بعثاتها الدبلوماسية فى لندن وحلب وواشنطن ، وخبيرا فى منظمة الوحدة الأفريقية ، وتولى منصب مساعد مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومى ، وعمل مديرا لمعهد الدراسات الدبلوماسية بالخارجية المصرية ، ومستشارا للأمم المتحدة ، فى معهد الدراسات الدبلوماسية بالسعودية . وحصل على عديد من الأوسمة من مصر والخارج ، وله عدة مؤلفات بارزة .

الناشر



مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام
التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء ـ القاهرة

مطابع الأهرام التجارية القاهرة ـ مصر